
كامل كيلاني
أشهر القصص
روبنسن كروزو
دار المعارف

اهداءات ٢٠٠٢

أ/ رشاد كامل الكيلانى

القاهرة

كامل كيلانى

أشهر القصص

روبنسن كروزو

الطبعة الثانية عشرة



دار المعارف



الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

مقدمة بقلم چان چاك رُسُّو [1]

« ما دُمْنا لا نَسْتَغنِي عَنِ ٱلـكُتبِ ، ولا مَعْدَى لَنـا عَنِ ٱلْمُطالَعَةِ ؛ فثَمَّةَ كِتابٌ هُوَ عِندِى أثْمَنُ ذُخرٍ فِى التَّرْبِيَةِ الاِسْتِقْلالِيَّةِ الطبِيعِيَّةِ . وسَيَكونُ أوَّلَ كِتابٍ يَقرَؤُهُ طِفْلِى « إمِيل » . وسَيُصْبِحُ — وَحْدَهُ — كلَّ مَكْتَبَتِهِ . وسَـيَرَى فِيهِ — عَلَى الدَّوامِ — مِنَ ٱلْمَزايا الْباهِرَةِ ما يَدْفَعُهُ لِإحْلالِهِ أسْمَى مَـكانٍ بَيْنَها .



« جان جاك رسو »

وسَيَظَلُّ هٰذا الـكِتابُ عُمْدَةً فى هٰذا الْبابِ ، وَيظَلُّ كُـلُّ ماعَداهُ — مِنْ كُتُبِ ٱلْعُلومِ الطَّبِيعِيَّةِ — حَواشِيَ وتَعْلِيقاتٍ عَلَيْهِ . فَهُوَ أصْدَقُ مِقْياسٍ نَقِيسُ بِهِ مَدَى نجاحِنا فى الْحَياةِ ، كما نَقِيسُ عَلَيْهِ أحْكامَنا الَّتِى نُصْدِرُها . وسَيَظَلُّ — كَذٰلِكَ — مُتَجَدِّدَ الرَّوْعَةِ والْأثَرِ فِى كُـلِّ وَقْتٍ نَقرَؤُهُ ، ما دام لَنا ذَوْقٌ لَمْ يَتطَرَّقْ إلَيْهِ الْفَسادُ .

تُرَى ما هُوَ هٰذا الـكِتابُ إذَنْ ؟

لَعَلَّهُ كِتابُ « أرِسْطُو » أوْ « پِلِين » أوْ « بُوفُّون » !

كَـلَّا ، لَيْسَ كِتابَ أحَدٍ مِنْ هٰؤُلاءِ ، بَلْ هُوَ كِتابُ « رُو بنسَنْ كرُوزُو » .

چان چاك رُسُّو

---

(١) نثبت — فى هذه الطبعة — مقدمة الكتاب و إلمامته كما نشرنا فى الطبعات السابقة .

إلمامة

تعد قصة « روبنسن كروزو » من أشهر القصص العالمية التى كتب لها الخلود . وقلما تجد فتى — أو فتاة — ممن يتكلم الإنجليزية فى أى بلد من بلاد العالم ، لم يقرأها فى شغف وسرور لا حد لها ، وهو مبتهج بتلك القصة الفاتنة ، التى تشرح له كيف غرقت السفينة ، ومات من فيها ، ونجا واحد بمفرده من ملاحيها ، وعاش فى جزيرة مقفرة لا أنيس بها . وكثيراً ما يسأل الطفل أبويه عن دقائق القصة وتفاصيلها .



« دانيل ديفو »

وقد اتخذها رجال التربية أساساً لتثقيف الأطفال ، لأنها تعودهم الجد والدأب ، وتنشئهم على الحياة الإستقلالية أحسن تنشئة . وقد جعلوها أساساً لنظام الكشافة ، كما اتخذوها مرشداً لهم ومعيناً فى اقتباس نظرية ربط بعض المواد الدراسية ببعض .

وقد ولد مؤلف هذه القصة « دانيل ديفو » بمدينة « لندن » عام ١٦٦١ م ، ومات فى ٢٦ من إبريل سنة ١٧٣١م . وكان مشهوراً بالصدق والأمانة .

وكان اسم أبيه « جيمس فو » .

وقد ظل اسم المؤلف — منذ نشأته إلى أن بلغ الأربعين من سنيه — « دانيل فو » ، ثم تغير بعد ذلك ؛ فأطلق عليه الناس اسم «دانيل ديفو». وكان لهذا التغير قصة طريفة ؛ هى أنه كان متعوداً أن يمضى بحوثه ومقالاته بالحرف الأول من اسمه ويردفه بالاسم الثانى منه كاملا هكذا : «د . فو» ؛ فتعود الناس أن ينطقوا باسمه هكذا : «ديفو» .

ثم غلب ذلك الاسم عليه ، لذيوعه وخفته على السمع وجمال موسيقاه ؛ فأصبحوا يسمونه منذ ذلك الحين « دانيل ديفو » .

وليس لدينا أنباء وثيقة عن نشأة هذا الكاتب النابغة ، كما أننا لا نعرف شيئاً يذكر عن سيرته الأولى . وغاية علمنا أن أباه كان قصاباً يعيش فى « لندن » ، وأنه قد عنى بتعليم ولده وتثقيفه العناية كلها ، ولم يأل جهداً فى تمهده بالدرس والتحصيل على خيرة معلمى عصره ، حتى إذا بلغ الرابعة عشرة

من عمره ، أرسل إلى إحدى جامعات « لندن » ليتم ثقافته . وهكذا تفقه المؤلف فى الدين ، وبرع فى علوم الرياضة والجغرافية والتاريخ وما إلى ذلك ، كما أتقن خمس لغات . وقد وفق إلى كتابة كثير من البحوث الرائعة : من دينية واجتماعية وإصلاحية وسياسية ، فكانت سبباً فى إذاعة مواهبه ونبوغه بين معاصريه .

* * *

وكان عصره عصر اضطرابات وثورات . وقد اشترك فى بعضها ، وعرض نفسه لأخطار القتل والسجن والتنكيل . فآثر الهرب إلى « إسبانيا » ، حيث استخفى عامين ، ثم عاد إلى وطنه . وساعده الحظ ، فتزوج فى « لندن » . واشتغل بالتجارة ، فلم يكتب له النجاح فيها ؛ لانصرافه عنها إلى الكتابة والبحث . ولم تمر عليه سبع سنوات حتى أرهقه الدين الذى أربى على سبعة عشر ألف جنيه . ولكن ثقة دائنيه به قد ساعدته — فيما بعد — على أداء هذا الدين الجسيم .

ثم رحل إلى « برستول » ، حيث أنشأ صحيفة باسمه ، وكتب فيها كثيراً من اقتراحاته الاقتصادية المثمرة ؛ فأخذت بها بلاده ، وأقرت آراءه فيها . وكان يحث مواطنيه على إنشاء الطرق ، والمصارف الاقتصادية للفقراء ، وما إلى ذلك من تنظيم الخطط الناجحة لتعليم جمهرة الشعب .

وكان لاقتراحاته تلك أكبر أثر فى نفس « بنيامين فرانكلين » ، الذى قرر — صراحة — أنه استفاد أكبر فائدة من البحث الذى سبقه إليه « ديفو » منذ عدة سنوات ، وقد حمد الحظ السعيد الذى قاده إلى هذا البحث فى مكتبة أبيه .

وقد اتصل بالملك « وليم الثالث » ، ودافع عن سياسته ، فذاع صيته .

ولما مات « وليم الثالث » آلمه موته ، وعده خسارة فادحة . وانتهز خصومه الفرصة ؛ فتألبوا عليه ونكلوا به . ثم عطفت عليه الملكة « حنة » ، بعد أن توسط له أحد الوزراء ؛ فظلت تشمله برعايتها حتى ماتت .

كيف اشتهر ديفو ؟

أما شهرة « ديفو » العظيمة ، فكان بدؤها قصيدة نظمها فى الدفاع عن « وليم أورنج » : ملك إنجلترا حينئذ ، رداً على قصيدة نظمها أحد الشعراء فى التهكم به ، فأكسبته عطف الملك وحب الشعب والحكومة ، وأحرز منصباً جليلا فى عام ١٦٩٤م .

وأبى إلا أن يزحم وقته بالعمل ، فأنشأ مصنع طوب كبيراً ، ولكنه لم يوفق فيه لكثرة أعماله . ثم مات « وليم أورنج » فى عام ١٧٠٢م ، ففقد « ديفو » بموته أكبر نصير ومشجع له .

* * *

وفى عهد الملكة « حنة » لقى « ديفو » كثيراً

من العنت والإرهاق ؛ فتأول خصومه فى بعض مقالاته ما شاء لهم الحقد والهوى . وانتهت محاكته بسجنه ، وتغريمه غرامة فادحة فى أواخر يونية سنة ١٧٠٣م .

وقد شهر به خصومه ، ولكن ذلك لم يقلل من إعجاب منصفيه الذين عرفوا نبل قصده وشرف غايته . وقد كتب فى سجنه عدة مقالات نفيسة . ولما خرج من السجن أنشأ صحيفة أخرى نالت أكبر النجاح ، وظلت تصدر إلى عام ١٧١٣م. وكانت أول أمرها تظهر مرة فى الأسبوع ، فرتين ، ثم ظلت تصدر تباعاً ثلاث مرات فى كل أسبوع .

* * *

وقد لقى « ديفو » كثيراً من الاضطهاد والعنت ، وتعرضت حياته للقتل ، ثم عاد بعد ذلك إلى خدمة الحكومة . وفى عام ١٧١٤م فصل من عمله ، وعاد إلى التعرض للإعنات مرة أخرى . وتألب عليه أعداؤه ، ودبروا له كثيراً من الدسائس والمؤامرات ، ورموه بالأنانية . فأنشأ صحيفة جديدة أسماها : « الدعوة إلى الشرف والعدل » . ودافع عن مبادئه وأغراضه دفاعاً مجيداً . وكانت هذه الصحيفة خاتمة حياته السياسية . ثم ساءت صحته وألح عليه المرض ، ولكن بنية جسمه القوية ساعدته على التغلب على متاعبه وأمراضه ، فاسترد صحته بعد قليل .

وقد ألف كثيراً من البحوث والمقالات والرسائل فى الدين والحكومة والوطن . ثم ألف فى أخريات أيامه نخبة من الكتب الشائقة التى أقبل عليها الجمهور أيما إقبال . وقد أدرك بفطرته تعلق الجمهور بالقصص ، وشدة تأثره بها ، وتهافته عليها ؛ إذا كانت صادقة الوصف والتحليل ، دقيقة فى تصوير الحياة . فنال بقصصه نجاحاً عظيما ؛ لأن قصته كانت تحلق دائماً فى جو سحرى خلاب يزينه الصدق والدقة والإخلاص .

* * *

وفى عام ١٧١٥م ألف كتاب « معلم الأسرة » فنال قسطاً كبيراً من النجاح والذيوع ، وأقبل عليه الجمهور . ثم ألف كتابه الخالد « روبنسن كروزو » وهو أشهر قصصه . وقد ظهر فيه أثر القصة العربية الخالدة : « حى بن يقظان » . ونشر القسم الأول منه فى أبريل سنة ١٧١٩م، وكان حينئذ قد قارب الستين من عمره .

وقد لقى هذا الكتاب من الإقبال والشهرة ما لم يكن يحلم به « ديفو » ، وأصبح حبيباً إلى كل نفس . ومن العجيب أنه لقى كثيراً من المتاعب والصعوبات فى البحث عن ناشر ينشره له فى أول الأمر . وليس فى قدرتنا أن نعلم كم ربح من كتابه ، وإن كنا نستطيع أن نعرف مدى نجاحه العظيم ، فقد نفدت منه أربع طبعات متوالية فى أربعة أشهر متعاقبة . وبعد زمن قليل ظهر القسم الثانى من القصة ، فلقى من الرواج والنجاح والإقبال مثل ما لقى سابقه . وهكذا ظفر « ديفو » بالشهرة عن طريق هذا الكتاب ، ولم يظفر بها عن طريق بحوثه السياسية والدينية الكثيرة ، على أن له عدة

مؤلفات أخرى .

وقد سار على نهجه بعض الكتاب ، ولم يقدر لهم الفوز ولم ينجح من بينهم غير كتاب « روبنسن سويسرا » أو « الأسرة السويسرية » الذى ألفه « رودلف نيس » أستاذ الفلسفة فى جامعة « برن » . وقد اختار لقصته أسرة عددها ستة أشخاص ، ينجون من الغرق ؛ فتتألف منهم أسرة سعيدة متعاونة ، يظللها الوئام والحب ؛ فتتغلب على العقبات والمصاعب .

* * *

على أن « ديفو » له عدة مؤلفات أخرى ، نذكر منها كتابه عن « الطاعون الهائل » الذى انتشر عام ١٦٦٥م . ولكن لم يرزق أى كتاب من كتبه حظاً من الخلود كما رزقت قصة « روبنسن كروزو » . ولقد كانت كتبه شائقة جذابة ، ولكن ليس لها سحر هذه القصة ، وروعة هذا الملاح الذى كتب له أن تغرق سفينته وأن يعيش فى جزيرة مقفرة .

* * *

وقد ساعده ما ربحه من المال — لقاء كتابته — على أن يقضى بقية حياته مستريح البال ، بعيداً عن الفاقة . فابتنى قصراً فاخراً ، واشترى عربة وجياداً ، وعاش عيشة راضية . ولكن صفوه لم يدم ؛ فقد نهكه مرض النقرس ، وضايقه عقوق ولده ؛ فعجل ذلك بموته لما استولى عليه من الغم . ودفن فى «لندن» فى الرابع والعشرين من أبريل سنة ١٧٣١م



تمهيد

مقدِماتُ السَّفرِ

١ — أسْرَةُ « رُوبِنْسَنْ »

كانَتْ ولادَتِي فى عامِ ١٦٣٢ م بِمَدِينَةِ « يُرْك » الّتى اتّخَذَها أبى مَوْطِناً ثانِياً لَهُ ، بَعْدَ أنْ كَسَبَ مِنَ التِّجارةِ مكاسِبَ طائِلَةً ، وجَنَى[1] ثَرْوَةً عَظيمةً ، كَفَلَتْ لهُ عِيشَةً راضِيَةً .

وكانتْ أسْرَتُنا مُؤَلَّفَةً منْ : والِدِى الشَّيْخِ ، وأُمِّىَ الْعَجوزِ ، وثَلاثةِ أبْناء كُنْتُ أصْغَرَهُمْ سِنًّا .

وقَدْ قُتِلَ شَقِيقِي الأَكْبرُ فى مَعْرَكةٍ حَرْبِيَّةٍ ، وسافَرَ الشَّقِيقُ الأوْسَطُ إِلَى حَيْثُ لا نَدْرِى ؛ فانْقَطَعَتْ أخْبارُهُ ، ولَمْ نَعْلَمْ عَنْهُ — بَعْدَ ذلكَ — شيْئاً .

---

(١) جمع .

وَعُنِيَ أَبِي عِنايةً كبيرةً بِتَعْلِيمِى ، وَنَشَّأَنِى أَحْسَنَ تَنْشِئَةٍ ، وَزَوَّدَنِي بكَثيرٍ مِنْ نَصائِحِهِ الثَّمِينَةِ ، واخْتارَ لِي أَنْ أَتَفَقَّهَ فِي القانُونِ[1] ولٰكِنَّنِي كُنْتُ شَدِيدَ الزُّهْدِ فِي دَرْسِهِ ، وكانَت نَفْسِي مُنْصَرِفَةً عنْ ذٰلكَ كُلِّهِ .

٢ — حُبُّ السِّياحَةِ

هِيَ أُمْنِيَّةٌ واحِدَةٌ ، طالَما تَمَنَّيْتُها ، وَرَغْبَةٌ شَدِيدَةٌ ، طالَما وَدِدْتُ تَحْقِيقَها . فقَدْ شُغِفْتُ[2] بالسِّياحَةِ وَرُكُوبِ الْبِحارِ ، وَتَمَلَّكَ عَلَيَّ حُبُّ السَّفَرِ كُلَّ نَفْسِي ؛ فَلَمْ أَعُدْ أُصْغِي إِلَى لَوْمٍ أَوْ نَصِيحَةٍ . وَكَأَنَّ إِرادَةً قاهِرَةً قَدْ هَيْمَنَتْ[3] عَلَى نَفْسِي ، وَغَلَبَتْنِي عَلَى أَمْرِي ؛ فَلَمْ أُصْغِ إِلَى نَصِيحَةِ أَبِي ، وَرَجاء أُمِّي ، وإِلْحاحِ أَقارِبِي ؛ حَتَّى يَئِسُوا مِنْ هِدايَتِي ، لِما رَأَوْهُ مِنْ عِنادِي وَإِصْرارِي .

٣ — نَصِيحَةُ والِدِهِ

وَكانَ أَبِي شَيْخًا مُجَرَّبًا حَكِيمًا ، وَكُنْتُ أُحِبُّهُ وَأُجِلُّهُ .

---

(١) أتعلمه . (٢) تعلق قلبي . (٣) تسلطت .

وَذا صَباحٍ ، دَعانِي إلى غُرْفَتِهِ — وَكانَ الشَّلَلُ قَدْ أَعْجَزَهُ عَنِ الْمَشْيِ — وَقالَ لِي وَقَدْ بَدَتْ عَلَى وَجْهِهِ أَماراتُ الْغَيْظِ وَالْأَلَمِ :

« أَيُّ رَغْبَةٍ مَجْنُونَةٍ تَدْفَعُكَ إِلَى مُغادَرَتِنا ، وَتُبَغِّضُ إِلَيْكَ الْبَقاءَ مَعَنا ؟ وَماذا يُضْجِرُكَ(١) مِنْ حَياةٍ هَنِيئَةٍ وَعِيشَةٍ راضِيَةٍ ، فِي بَيْتٍ نَشَأْتَ فيهِ ، ووَطَنٍ أَلِفْتَهُ وأَحْبَبْتَهُ ؟ وما بالُكَ تُؤْثِرُ(٢) الشَّقاءَ عَلَى الرَّاحَةِ ، وَتُعَرِّضُ نَفْسَكَ لِأَخْطارِ الْبَحْرِ وَمَتاعِبِ السَّفَرِ ؟ لَقَدْ يَسَّرَ اللهُ لكَ سَبِيلَ السَّعادَةِ ، وَهَيَّأَ لَكَ عِيشَةً راضِيَةً . فَما أَجْدَرَكَ(٣) أَنْ تَرْضَى بِما قَسَمَ اللهُ ، وتَحْمَدَهُ عَلَى هٰذِهِ النِّعْمَةِ الَّتِي اخْتَصَّكَ بِها ! وَاعْلَمْ أَنَّكَ إِذا أَصْرَرْتَ عَلَى عِنادِكَ ، وأَبَيْتَ إِلَّا تَحْقِيقَ رَغْبَتِكَ الْمَجْنُونَةِ فِي السَّفَرِ ، أَغْضَبْتَنِي ، وأَغْضَبْتَ أُمَّكَ ، وَأَغْضَبْتَ اللهَ — سُبْحانَهُ — الَّذِي أَمَرَكَ بِطاعَةِ أَبَوَيْكَ . »

---

(١) يضايقك .　　(٢) تختار　　(٣) أحسن لك .

٤ — دَعْوَةٌ مُسْتَجابَةٌ

وَظَلَّ أَبِي يَعْنُفُ[1] فِي كلامِهِ تارَةً ، وَيَلِينُ تارَةً أُخْرَى ، وَيَضْرِبُ لِيَ الْأَمْثالَ . وَلَمْ يَدَعْ وَسِيلَةً مِنْ وَسَائِلِ النُّصْحِ إِلَّا سَلَكَها . ثُمَّ خَتَمَ حَدِيثَهُ قائِلًا :

« وَاذْكُرْ — يا وَلَدِي — أَنِّي فَقَدْتُ شَقِيقَكَ الْأَكْبَرَ الَّذِي قُتِلَ فِي الْحَرْبِ ، وفَقَدْتُ شَقِيقَكَ الْأَوْسَطَ الَّذِي أَصَرَّ عَلَى السَّفَرِ، كما تُصِرُّ عَلَيْهِ الْآنَ ؛ وَقَدِ انْقَطَعَتْ أَخْبارُهُ عَنَّا إِلَى الْيَوْمِ ، فَما نَعْلَمُ : أَحَيٌّ هُوَ أَمْ مَيِّتٌ ؟ وأَصْبَحْتَ لنا — بَعْدَ أَخَوَيْكَ — كُلَّ رَجائِنا وَعَزائِنا . فَإِذا أَصْرَرْتَ عَلَى عِنادِكَ ، وَأَبَيْتَ إِلَّا السَّفَرَ ؛ فَلَنْ يُبارِكَ اللهُ لكَ ؛ وَلَنْ تَلْقَى — فِي سَفَرِكَ — إِلَّا الْعَناءَ والشَّقاءَ . »

* * *

وَقَدْ كانَتْ هٰذِهِ الْكَلِمَةُ تَكَهُّنًا[2] صادِقًا ، وَدَعْوَةً مُسْتَجابَةً ؛ فَقَدْ شَقِيتُ — بِعِنادِي وإِصْرارِي[3] — شَقاءً لَمْ يَلْقَهُ أَحَدٌ قَبْلِي .

---

(١) يشتد . (٢) إخبارا بالغيب . (٣) عزمي الثابت .

٥ — عُدُولُهُ عَنِ السَّفَرِ

وكانَ صَوْتُ أَبِي مُتَهَدِّجًا[١] ، ودُمُوعُهُ تَنْحَدِرُ[٢] مِنْ عَيْنَيْهِ . وقَدِ اشْتَدَّ أَلَمُهُ حينَ ذَكَرَ لِي مَوْتَ شَقِيقِيَ الأَكْبَرِ ، وانقِطاعَ أَخْبارِ شَقِيقِيَ الْأَوْسَطِ .

وكانَ يَتَمَثَّلُ لِي حَنانُه وعَطْفُهُ فِي كُلِّ كَلِمَةٍ يَنْطِقُ بِها . ولَمْ يَكُنْ فِي وُسْعِي أَنْ أُخالِفَ لَهُ نُصْحًا بَعْدَ ذٰلِكَ ؛ فَوَعَدْتُهُ بِالْعُدُولِ عَنِ السَّفَرِ . وعَقَدْتُ عَزْمِي[٣] عَلَى الْبَقاءِ فِي وَطَنِي ، نُزُولًا عَلَى حُكْمِهِ ، وطاعَةً لِأَمْرِهِ .

٦ — نَقْضُ الْعَهْدِ

وبَعْدَ زَمَنٍ قَلِيلٍ عاوَدَتْنِي رَغْبَةٌ قاهِرَةٌ فِي السَّفَرِ ، وحَنِينٌ شَدِيدٌ إِلَى رُكُوبِ الْبَحْرِ فَنَسِيتُ ما عاهَدْتُ أَبِي عَلَيْهِ ، وتَحَوَّلْتُ[٤] لِذٰلِكَ حِيلَةً لَمْ أُوَفَّقْ فِيها . فَقَدْ رَأَيْتُ دَلائِلَ الِابْتِهاجِ بادِيَةً عَلَى وَجْهِ أُمِّي — ذاتَ يَوْمٍ — فَوَجَدْتُ فِي ذٰلِكَ فُرْصَةً سانِحَةً لِلْإِفْضاءِ إِلَيْها بِرَغْبَتِي فِي السَّفَرِ ، واسْتِئْذانِها فيهِ . وتَلَطَّفْتُ فِي شَرْحِ الْأَسْبابِ الَّتِي تَحْفِزُنِي[٥]

---

(١) مرتعشاً . (٢) سقط . (٣) بنيت إرادتي .
(٤) اتخذت . (٥) تدفعني .

إِلَى السَّفَرِ لِرُؤْيَةِ الْبِلَادِ الَّتِي طَالَمَا سَمِعْتُ عَنْهَا. وأَظْهَرْتُ لَهَا أَنَّ هٰذِهِ الرَّغْبَةَ قَدْ مَلَأَتْ نَفْسِي؛ فَلَمْ أَعُدْ أَصْلُحُ لِأَدَاءِ أَيِّ عَمَلٍ آخَرَ، قَبْلَ أَنْ أَظْفَرَ بِتَحْقِيقِهَا. وخَتَمْتُ حَدِيثِي مَعَهَا قَائِلًا:

« وَاعْلَمِي أَنَّنِي إِذَا عَجَزْتُ عَنِ الظَّفَرِ بِهٰذَا الْإِذْنِ مِنْكِ وَمِنْ أَبِي، فَإِنَّنِي مُعْتَزِمٌ السَّفَرَ مِنْ غَيْرِ اسْتِئْذَانٍ. وَلَا تَنْسَيْ أَنِّي قَدْ بَلَغْتُ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمُرِي، وَأَصْبَحْتُ عَاقِلًا رَشِيدًا، أَمْلِكُ أَمْرِي.

عَلَى أَنِّي أَرَى الْخَيْرَ فِي أَنْ يَأْذَنَ لِي أَبِي فِي السَّفَرِ. »

٧ — غَضَبُ أَبَوَيْهِ

وَمَا سَمِعَتْ أُمِّي مِنِّي هٰذَا الْكَلَامَ حَتَّى اشْتَدَّ غَضَبُهَا عَلَيَّ، وَقَالَتْ لِي:

« مِنَ الْعَبَثِ أَنْ تَتَمَادَى(١) فِي إِقْنَاعِنَا بِهٰذِهِ الْفِكْرَةِ الطَّائِشَةِ الَّتِي لَا تَجُرُّ عَلَيْكَ إِلَّا الْوَبَالَ(٢). وَلَنْ يَسْمَحَ لَكَ أَبُوكَ بِأَنْ تُعَرِّضَ نَفْسَكَ لِلْهَلَاكِ. »

* * *

(١) تستمر. (٢) سوء العاقبة.

وما أخبَرتُ أبي بما اعتزمتُهُ ، حتّى اشتدّ ألمُهُ وغيظُهُ ، وقالَ لها :

« يبدُو لِي أنّ الشّقاء مُقدّرٌ لهذا الولدِ التّاعِسِ . وسيلقَى في سفرِهِ مِنَ المصائِبِ والأهوالِ ، ما لا يخطُرُ لهُ على بالٍ . وسيعرِفُ أنّ ما يحُلُّ بِهِ مِنَ النّكباتِ هُوَ عِقابٌ عادِلٌ على مُخالفَتِهِ نَصِيحَةَ أبوَيْهِ . ولَنْ يَسْمَحَ لِي ضَمِيرِي أنْ أشرَكَهُ في تسهِيلِ أسبابِ شقائِهِ . »

. . .

وما انقضَى علَيّ عامٌ — بعدَ ذلكَ — حتّى فرَرْتُ مِنَ البيتِ ، وقدْ أزمَعْتُ(١) السّفرَ ، بعدَ أنْ عجزْتُ عَنِ الظّفرِ بِرِضاء أبوَيّ .

وكُنتُ أعجَبُ لتَشَبُّثِهِما(٢) ببقائِي مَعَهُما . ولَمْ أعلَمْ — حِينَئِذٍ — ما كانَ يَخْبَؤُهُ لِيَ القَدَرُ مِنْ مَصائِبَ وَوَيْلاتٍ .

---

(١) قررت . (٢) تعلقهما .

الفصل الأول

أَهْوَالُ البَحْرِ

١ — أَوَّلُ سِبْتَمْبِرَ

ساقَتْنِيَ الْمُصادَفاتُ الْعَجِيبَةُ — ذاتَ يَوْمٍ — إلَى « هَلْ » ، ولَمْ أَكُنْ أُفَكِّرُ — حِينَئِذٍ — فى السَّفَرِ إِلَيْها ، ولا خَطَرَ لِي ذٰلك يَوْمَئِذٍ علَى بالٍ .

ولَقِيتُ — فى طَرِيقِي — أَحدَ أَصْدِقائِي ، فَحَيَّانِي وحَيَّيْتُهُ . ثُمَّ عَلِمْتُ مِنْ حَدِيثِهِ أَنَّهُ علَى أُهْبَةِ السَّفَرِ[1] إلى « لَنْدَنَ » . ودَعانِي إِلَى السَّفَرِ مَعَهُ فى سَفِينَةِ أَبِيهِ ؛ فَرَأَيْتُها فُرْصَةً نادِرَةً لتَحْقِيقِ أُمْنِيَّتِي ، دُونَ أَنْ يُكَلِّفَنِي ذٰلِكَ أَجْرًا . وغَلَبَ عَلَيَّ حُبُّ الْبَحْرِ ، فَنَسِيتُ كلَّ شَيْءٍ . ولَمْ أَحْفِلْ[2] بِإِذْنِ والِدَيَّ لِي فِي هٰذهِ الرِّحْلَةِ ، ولَمْ أُقَدِّرْ عَواقِبَ الْأُمُورِ .

وَهٰكَذا رَكِبْتُ الْبَحْرَ . . . وَما أَنْسَ لا أَنْسَ[3] ذٰلكَ الْيَوْمَ الَّذِي

---

(١) مستعد للرحيل .　　(٢) لم أهتم .　　(٣) إن نسيت كل شيء فلن أنسى .

أَقْدَمْتُ فِيهِ عَلَى هٰذِهِ ٱلْمُجازَفَةِ . فقَدْ كانَ أَشْأَمَ يَوْمٍ فى تاريخِ حَياتِى ؛ إِذْ كانَ فاتِحَةَ عَهْدِ ٱلشَّقاء .

ذٰلِكَ ٱلْيَوْمُ هُوَ أَوَّلُ سبْتَمْبرَ عامَ ١٦٥١ م .

٢ — هُبُوبُ ٱلعاصِفَةِ

وما كادَتِ ٱلسَّفِينَةُ تَمْخُرُ(١) فى عُرْضِ ٱلْبَحْرِ ، حتَّى رَأَيْتُ ٱلْأَمْواجَ تَصْطَخِبُ(٢) وَتَعْنُفُ(٣) . وَلَمْ أَكُنْ رَكِبْتُ ٱلْبَحْرَ قَبْلَ هٰذا ٱلْيَوْمِ ؛ فَتَمَلَّكَنِى ٱلْخَوْفُ وٱلْفَزَعُ ، وَأَحْسَسْتُ أَنَّ آخِرَتِى قَدْ حانَتْ . وَتَمَثَّلَتْ لِى نَصائِحُ والِدِىَّ وأَهْلِى ، وَذَكَرْتُ كَلِماتِ أُمِّىَ ٱلَّتِى كانَتْ تَقُولُها لِى وَالدُّمُوعُ مُتَحَدِّرَةٌ مِنْ مَآقِيها(٤) . وَأَيْقَنْتُ أَنَّ هٰذِهِ ٱلعاصِفَةَ لَيْسَتْ إِلَّا عِقابًا عادِلًا وجَزاءً وِفاقًا .

واشْتَدَّ هِياجُ ٱلْبَحْرِ واضْطِرابُه . وَرَأَيْتُ العاصِفَةَ ٱلْهَوْجاء ، وَهِىَ تُنْذِرُنا بِالْهَلاكِ — بَيْنَ لَحْظَةٍ وَأُخْرَى — وَقَدْ أَوْشَكَ ٱلْمَوْجُ أَنْ يَبْتَلِعَنا جَمِيعًا . وَخُيِّلَ إِلَىَّ أَنَّ السَّفِينَةَ تَهْبِطُ حَتَّى تَلْمِسَ قاعَ ٱلْبَحْرِ ، فَلَمْ أَرَ مَناصًا(٥) مِنَ ٱلْمَوْتِ . وَنَذَرْتُ لِلّٰهِ نَذْرًا أَلَّا أَرْكَبَ ٱلْبَحْرَ

(١) تشق الماء . (٢) تتقلب . (٣) تشتد . (٤) جوانب عينيها . (٥) مخرجاً

ما حَيِيتُ بَعْدَ هٰذهِ الْمَرَّةِ ، إذا نَجَوْتُ مِنَ ٱلْهَلاكِ ! وَدَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُنقِذَنى ، لِأَعُودَ إِلَى أَبَوَىَّ تائِبًا نادِمًا عَلَى عِصْيانِى وَمُخالَفَتِي ، وَأُعاهِدَهُما[1] عَلَى أَنْ أُطِيعَهُما فِى كلِّ ما يَأْمُرانِ بِهِ .

• • •

وَفى ٱلْيَوْمِ التَّالِى سَكَنَ ٱلْهَواءُ، وهَدَأَ ٱلْبَحْرُ . وبَدَأْتُ أَشْعُرُ أَنَّنِي قَدْ تَعَوَّدْتُهُ وأَلِفْتُهُ بَعْضَ ٱلْأُلْفَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ — حِينَئِذٍ — قَدْ تَمَّ شِفائِى مِنَ الدُّوارِ[2] .

ولَمَّا اقْتَرَبَ ٱللَّيْلُ وغَرَبَتِ الشَّمْسُ وانْقَشَعَتِ السُّحُبُ[3] ، ظَهرَتْ رَوْعَةُ ٱلْبَحْرِ[4] ، وجَمالُ الطَّبِيعَةِ فى تِلْكَ ٱللَّيْلَةِ . وَهَبَّ عَلَيْنا فى ٱلْيَوْمِ التَّالِى نَسِيمٌ خَفِيفٌ . وأَصْبَحَ ٱلْبَحْرُ كالْمِرْآةِ الصَّافِيَةِ ، وَتَجَلَّتِ الطَّبِيعَةُ فى أَبْهَى حُلَلِها[5] . ورَأَيتُ مِنْ جَمالِ ٱلْبَحْرِ — فى ذٰلِكَ ٱلْيَوْمِ — ما أَنْسانِى هِياجَهُ واضْطِرابَهُ بِالْأَمْسِ . فَنَسِيتُ ذٰلِكَ النَّذْرَ الَّذِى نَذَرْتُهُ لِلّهِ ، والْعَهْدَ الَّذِى قَطَعْتُهُ عَلَى نَفْسِى !

• • •

(١) أحلف لهما . (٢) وجع يصيب الرأس من ركوب البحر . (٣) زالت .
(٤) حسن منظره . (٥) أجمل أثوابها .

وَجاءَ إِلَيَّ صَدِيقِي يُرَبِّتُ كَتِفِي وَيقولُ :

« كَيْفَ تَجِدُكَ ٱلْآنَ ؟ شَدَّ ما رَوَّعَكَ(١) ٱلْبَحْرُ ، يا صَدِيقِي . وَما كانَ أَجْدَرَكَ(٢) بالشَّجاعَةِ ، فَقَدِ امْتَلأَتْ نَفْسُكَ خَوْفًا وَرُعْبًا حِينَ هَبَّتْ علَيْنا نَسَمَةٌ لَطِيفَةٌ مِنَ ٱلْبَحْرِ . »

* * *

فَقُلْتُ لَهُ مُتَعَجِّبًا : « كَيْفَ تُسَمِّيها نَسَمَةً ، وَهِيَ عاصِفَةٌ هَوْجاءُ مُرَوِّعَةٌ ؟ »

فَقالَ لِي : « وَكَيْفَ تُسَمِّيها عاصِفَةً ؟ يا لَكَ مِنْ ساذَجٍ ! إِنَّها نَسَمَةٌ خَفِيفَةٌ ، طالَما أَلِفْناها وهَزِئْنا بِها . فَلا تَجْزَعْ مِنْ أَمْثالِها ؛ فَأَنْتَ رَجُلٌ ، وما أَجْدَرَ الرَّجُلَ أَنْ يَكُونَ شُجاعًا ! »

٣ — فِي ٱلْيَوْمِ ٱلثَّامِنِ

وَقَدْ أَنْسانِي هُدُوءُ ٱلْبَحْرِ وَصَفاؤُهُ كُلَّ آلامِي وَأَحْزانِي . وَشَغَلَنِيَ التَّأَمُّلُ فِي جَمالِ الطَّبِيعَةِ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ . وَلَمْ يَنْقَضِ عَلَيَّ سَبْعَةُ أَيّامٍ

(١) أزعجك .   (٢) ما أحقك .

حَتَّى اطْمَأَنَّتْ نَفْسِي إِلَى حَياةِ الْبَحْرِ ؛ وَلَمْ أَعُدْ أَذْكُرُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِي، وَنَسِيتُ كُلَّ ما زَوَّدُونِي بِهِ مِنْ نَصائِحَ . وَفِي صَباحِ الْيَوْمِ الثَّامِنِ عَنُفَتِ الرِّيحُ، وَاشْتَدَّتِ اشْتِدادًا لا مَثِيلَ لَهُ : وَبَدا الْقَلَقُ وَالِاضْطِرابُ عَلَى أَسارِيرِ الْمَلَّاحِينَ[1] ؛ فَأَنْزَلُوا أَشْرِعَةَ السَّفِينَةِ، وَتَأَهَّبُوا[2] لِمُلاقاةِ الْخَطَرِ وَجْهًا لِوَجْهٍ . وَلَمَّا جاءَ وَقْتُ الظُّهْرِ اشْتَدَّ هِياجُ الْبَحْرِ ، وَدَبَّ الْيَأْسُ فِي نُفُوسِنا جَمِيعًا . وَسَمِعْتُ رُبَّانَ السَّفِينَةِ — وَقَدْ كانَ مِثالَ الشَّجاعَةِ وَالْحَزْمِ — وَهُوَ يُناجِي نَفْسَهُ بِصَوْتٍ خافِتٍ: « رَحْمَةً بِنا يا إِلٰهِي ! فَقَدْ هَلَكْنا جَمِيعًا، وَلَمْ يَبْقَ لَنا مَلْجَأٌ سِواكَ . »

. . .

وَامْتَلَأَتْ نَفْسِي رُعْبًا ؛ إِذْ رَأَيْتُ الْأَمْواجَ تَرْتَفِعُ كَالْجِبالِ، وَتَنْقَضُّ[3] عَلَيْنا فِي كُلِّ لَحْظَةٍ ، فَيُخَيَّلُ إِلَيْنا أَنَّها قَدِ ابْتَلَعَتْنا . وَرَأَيْنا السُّفُنَ الْقَرِيبَةَ تُعانِي مِثْلَ ما نُعانِيهِ، وَقَدْ غَرِقَتْ سَفِينَةٌ كَبِيرَةٌ بِالْقُرْبِ مِنَّا . وَما انْتَصَفَ اللَّيْلُ حَتَّى صاحَ أَحَدُ الْمَلَّاحِينَ يَطْلُبُ مِنْ رِفاقِهِ النَّجْدَةَ وَالْغَوْثَ؛ فَقَدْ ثُقِبَتِ السَّفِينَةُ ! وَأَسْرَعْنا إِلَيْهِ ، فَرَأَيْنا ثُغْرَةً[4] يَتَدَفَّقُ

(١) خطوط جبينهم (٢) استعدوا (٣) تسقط (٤) خرقاً .

مِنْها الْماءِ . وتَعاونَّا جَمِيعاً عَلَى إِخْراجِ الْماءِ مِنَ السَّفِينَةِ . وأَطلَقَتْ إِحْدَى السُّفُنِ الْقَرِيبَةِ مِنَّا مِدْفَعاً ، إِنْذارًا بِالْخَطَرِ ، وطَلَبًا لِلنَّجْدَةِ . وقَدْ أُغْمِيَ عَلَيَّ مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ .

ولَمْ أُفِقْ مِنْ غَشْيَتِي إِلَّا بَعْدَ زَمَنٍ طَوِيلٍ . وأَطْلَقَ رُبَّانُنا مِدْفَعاً ، الْتِماساً لِلنَّجْدَةِ . فَدَنَتْ مِنَّا سَفِينَةٌ صَغِيرَةٌ لإِنْقاذِنا ، وحَمَلَتْنا إِلَى باخِرَةٍ قَرِيبَةٍ . ولَمْ نَسْتَطِعْ أَنْ نَصِلَ إِلَيْها إِلَّا بَعْدَ عَناءٍ[1] شَدِيدٍ .

* * *

وبَعْدَ دَقائِقَ قَلِيلَةٍ رَأَيْنا سَفِينَتَنا وهِيَ تَغْرَقُ . ومَضَى عَلَيْنا زَمَنٌ طَوِيلٌ ونَحْنُ مُسْتَهْدِفُونَ[2] لِلْخَطَرِ بَيْنَ لَحْظَةٍ وأُخْرَى . ولَمْ نَبْلُغِ الشَّاطِئَ إِلَّا بَعْدَ أَنْ خارَتْ[3] قُوانا ويَئِسْنا مِنَ النَّجاةِ .

٤ — بَعْدَ النَّجاةِ مِنَ الْغَرَقِ

ولَقَدْ كانَ جَدِيرًا بِي — بَعْدَ أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيَّ بِالسَّلامَةِ مِنَ الْغَرَقِ — أَنْ أَفِيَ بِنَذْرِي ، وأَعُودَ إِلَى أَهْلِي تائِباً نادِماً عَلَى ما فَرَطَ[4]

---

(١) تعب (٢) متعرضون . (٣) ضعفت . (٤) ما سبق وقوعه .

مِنِّي . ولٰكِنَّ غُرورَ الشَّبابِ[1] حالَ بَيْنِي وَبَيْنَ تَحْقِيقِ هٰذِهِ الفِكْرَةِ النَّبِيلَةِ . فَقَدْ تَمَثَّلَتْ لِي شَماتَةُ النَّاسِ بِي ، وسُخْرِيَتُهُمْ مِنِّي ؛ لِما لَحِقَنِي مِنَ النَّكَباتِ فِي تِلْكَ الرِّحْلَةِ الْمَشْئُومَةِ . وَخُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّنِي إذا عُدْتُ إِلى أَهْلِي ، أَصْبَحْتُ سُخْرِيَةَ النَّاسِ . وَعَزَّ عَلَى نَفْسِي أَنْ أَعْتَرِفَ بِخَطَئِي .

وَقَدْ كَلَّفَنِي هٰذا الْغُرُورُ ثَمَنًا غالِيًا جِدًّا ؛ فَقَدْ دَفَعَنِيَ الْعِنادُ إِلَى اقْتِحامِ الْأَخْطارِ ورُكُوبِ الْبِحارِ ، ولَقِيتُ مِنَ الْمَصائِبِ ما لَمْ يَخْطُرْ لِي عَلَى بالٍ .

فَعَزَمْتُ — بَعْدَ أَنْ سافَرْتُ إِلَى « لَنْدَن » — عَلَى مُرافَقَةِ جَماعَةٍ مِنَ الْمَلَّاحِينَ فِي رِحْلَتِهِمْ إِلى شَواطِئِ إِفْرِيقِيَّةَ . ولَمْ أَعْلَمْ ما يَخْبَؤُهُ لِيَ الْقَدَرُ مِنَ الْمَتاعِبِ والْآلامِ .

---

(١) خداعه وباطله .

الفصل الثانى

بَيْنَ الأسْرِ وَالحرّية

١ — رِحْلَةٌ مُوَفَّقَةٌ

كانَ مِنَ الطَّبِيعِيِّ أنْ تَكُونَ حَيَاتِيَ ٱلْقابِلَةُ سِلْسِلَةً مِنَ ٱلْكَوارِثِ[1] وَالنَّكَباتِ ، فَلا أَخْلُصَ مِنْ مُصِيبَةٍ حَتَّى تُسْلِمَنِي إِلى أُخْرَى ، وَلا أَنْجُوَ مِنْ مَأْزِقٍ[2] حَتَّى أَقَعَ فى مَأْزِقٍ شَرٍّ مِنْهُ . فَقَدْ أَغْضَبْتُ والِدَيَّ وأَهْلِي ، وأَهْمَلْتُ نَصائِحَهُمْ ، وخَرَجْتُ مِنْ بَيْتِي بِلا إِذْنٍ مِنْهُمْ . وثَمَّةَ أَيْقَنْتُ أَنَّ ما حَلَّ بِي مِنَ ٱلْكَوارِثِ لَمْ يَكُنْ إِلَّا عِقابًا عادِلًا عَلَى تَمَرُّدِي وعِصْيانِي .

لَقَدْ عَزَمْتُ عَلَى مُواصَلَةِ السَّفَرِ ، بَعْدَ أَنْ عَزَّ عَلَيَّ أَنْ أَعُودَ إِلى بَيْتِيَ مُخْفِقًا[3] . وأَرَدْتُ أَنْ أُصْلِحَ الْخَطَأَ ٱلْأَوَّلَ بِخَطِيئَةٍ أُخْرَى ، أَكْثَرَ شَناعَةً مِنْهُ . فَما صاحَبْتُ رُبَّانَ إِحْدَى السُّفُنِ — وكانَ أَوَّلَ شَخْصٍ لَقِيتُهُ مِنَ ٱلْمَلَّاحِينَ — حَتَّى ٱعْتَزَمْتُ مُرافَقَتَهُ فِي رِحْلَتِهِ .

---

(١) المصائب . (٢) ضيق وشدة . (٣) خائباً .

وكانَتْ سَفِينَتُهُ ذاهِبَةً إلى شَواطِئِ « غانَةَ » وقَدْ أخْبَرَنى بِما لَقِيَ مِنْ نَجاحٍ ، وَما أفادَ مِنْ غِنًى وثَرْوَةٍ ، فى رِحْلَتِهِ الأُولَى إلى تِلْكَ البِلادِ . وَما تَعَرَّفَ قِصَّتى حَتَّى شَجَّعَنى عَلَى مُصاحَبَتِهِ ، وَأعْفانى مِنْ نَفَقاتِ الرِّحْلَةِ . واقْتَرَحَ عَلَيَّ أنْ أشْتَرِيَ — بِما مَعِيَ مِنَ النُّقُودِ — بَضائِعَ لِأتَّجِرَ بِها فى تِلْكَ البِلادِ ؛ فَفَعَلْتُ كُلَّ ما أشارَ بِهِ عَلَيَّ .

ونَجَحَتْ هٰذه الرِّحْلَةُ . وقَدْ بَذَلَ جُهْدَهُ فى تَدْرِيبِى على المِلاحَةِ والتِّجارَةِ . وعُدْتُ إلى « لَنْدَن » مُغْتَبِطًا راضِيًا بِما أصَبْتُهُ مِنْ رِبْحٍ وتَوْفِيقٍ .

٢ — لُصُوصُ البَحْرِ

وبَعْدَ أيّامٍ قَلِيلةٍ تُوُفِّيَ ذٰلِكَ الرُّبّانُ . فَحَزِنْتُ لِمَوْتِهِ حُزْنًا شَدِيدًا ؛ ومَنَحْتُ أرْمَلَتَهُ مِائَتَيْ جُنَيْهٍ . وَشَرَيْتُ بَضائِعَ بِمائَةِ الجُنَيْهِ الباقِيَةِ مَعِي ، وأبْحَرْتُ إلى « غانَةَ » . ولٰكِنَّ رِحْلَتَنا — فى هٰذِهِ المَرَّةِ — لَمْ تَكُنْ مُوَفَّقَةً ؛ فَقَدِ اعْتَرَضَنا لُصُوصُ البَحْرِ فى الطَّرِيقِ ، فَأطْلَقْنا لِسَفِينَتِنا العِنانَ ، وحاوَلْنا النَّجاةَ مِنْهُمْ . وكانَ فى سَفِينَتِنا اثْنا عَشَرَ مِدْفَعًا ،

وعِنْدَ أَعْدائِنا ثمانِيَـة عَشَرَ مِدْفَعًا . وكُنَّا أَقَلَّ مِنْهُمْ عَـدَدًا ، ولٰـكِنَّنا اُسْتَبْسَلْنا فى دِفاعِنا وقَهَرْناهُمْ مَرَّتَيْنِ . ثُمَّ كَرُّوا عَلَيْنا — فى ٱلْمَرَّةِ الثَّالِثَةِ — فَقَهَرُونا ، وحَطَّمُوا قِلاعَنا ، وقَتَلوا ثَلاثَةً مِنْ رِجالِنا ، وجَرَحُوا ثَمانِيَـةً ؛ فاضْطُرِرْنا إِلَى الإِذْعانِ لَهُمْ ، ووَقَعْنا فى أَسْرِهِمْ .

٣ — الْعُبُودِيَّةُ

وقَدْ أُعْجِبَ ٱلرُّبَّانُ بِنشاطِى ؛ فاتَّخَذَنِى عَبْدًا لهُ . ولَبِثْتُ فى خِدْمَتِهِ عامَيْنِ كامِلَيْنِ ، وأَنا أُفَكِّرُ فى وَسِيلَةٍ لِلْهَرَبِ فَلا أُوَفَّقُ . وكان كَثِيرًا ما يَصْحَبُنِى لِأَصْطادَ مَعَهُ ، وقَدْ وَثِقَ بِى فى كُلِّ أَعْمالِهِ.



وفى أَحَدِ الأَيَّامِ ، طَلَبَ مِنِّىَ الرُّبَّانُ أَنْ أَصْطادَ سَمَكًا لِيَتَعَشَّى بِهِ مَعَ ضُيُوفِهِ ؛ فَرَأَيْتُ الْفُرْصَةَ سانِحَةً لِلْهَرَبِ ؛ فَقَدْ تَرَكَ لِىَ الرُّبَّانُ سَفِينَةَ الصَّيْدِ ، ولَمْ يَكُنْ يَصْحَبُنِى إِلَّا فَتًى

رَقِيقٌ ، ورَجُلٌ مِنْ أَقارِبِ الرُّبَّان . فَقُلْتُ لِلرَّجُلِ :

« يَجِبُ أَنْ تُعِدَّ لَنا زادًا[1] نَأْكُلُهُ حتَّى لا نَشْرَكَ سَيِّدَنا فى أَكْلِهِ . »

فَأَقَرَّنِى على هٰذا الرَّأْيِ ، وأَحْضَرَ لَنا سَلَّةً منَ الفَطائِرِ اليابِسَةِ والخُشْكنانِ[2] ، وثَلاثَ جَرَّاتٍ مَمْلُوءَةً ماءً . وذَهَبْتُ إِلَى مَخْزَنِ الرُّبَّانِ ؛ فَأَحْضَرْتُ مَعِى فَأْسًا وقَدُومًا وحِبالًا ، وطَلَبْتُ مِنَ الرَّجُلِ أَنْ يُحْضِرَ لَنا بُنْدُقِيَّاتٍ ورَصاصًا لِنَصْطادَ بِها ، فَأَحْضَرَ لِى ما طَلَبْتُ .

وهٰكَذا أَعْدَدْتُ كُلَّ مُعَدَّاتِ الهَرَبِ .

٤ — الفِــــرارُ

لَقَدْ أَزْمَعْتُ الفِرارَ[3] ، ولَمْ أَكُنْ عَلَى ثِقَةٍ منَ النَّجاحِ ؛ وَلٰكِنَّنِى أَيْقَنْتُ أَنَّ العَزِيمَةَ الصَّادِقَةَ تَتَغَلَّبُ عَلَى كُلِّ عَقَبَةٍ تَعْتَرِضُها ، ما دامَ اليَأْسُ لا يَعْرِفُ سَبِيلًا إِلَيْها .

وَسِرْنا مَسافَةً طَوِيلَةً وَأَنا أُوهِمُ الرَّجُلَ أَنَّنِى جادٌّ فى تَحْقِيقِ فِكْرَةِ الرُّبَّانِ . ثُمَّ غافَلْتُهُ وَقَذَفْتُ بِهِ إِلَى البَحْرِ — وكانَ ماهِرًا فى السِّباحَةِ —

(١) طعاماً . (٢) البسكويت . (٣) اعتزمت الهرب .

وَرَأَيْتُهُ يُوشِكُ أَنْ يَلْحَقَ بِي ، فَصَوَّبْتُ بُنْدُقِيَّتِي إِلَى رَأْسِهِ ، وهَدَّدْتُه بِالْقَتْلِ إِذا تَتَبَّعَنِي ؛ فاضْطُرَّ لِلرُّجُوعِ إِلَى الشَّاطِئِ ، بَعْدَ أَنْ يَئِسَ مِنَ الظَّفَرِ بِي .

وَسَأَلْتُ ٱلْفَتَى : « أَتُعاهِدُنِي عَلَى ٱلْوَفاءِ ، أَمْ تَعُودُ أَدْراجَكَ كَما عادَ هٰذا الرَّجُلُ ؟ فَإِنِّي عامِلٌ عَلَى قَتْلِكَ إِذا لاحَ[1] لِي مِنْكَ ٱلْغَدْرُ . »

فَٱبْتَسَمَ لِيَ ٱلْفَتَى ، وَأَقْسَمَ : إِنَّهُ لَنْ يَتَرَدَّدَ فِي إِطاعَةِ أَمْرِي والذَّهابِ مَعِي إِلَى حَيْثُ أُرِيدُ . وَظَلِلْنا فِي سَيْرِنا خَمْسَةَ أَيَّامٍ ، والرِّيحُ مُعْتَدِلَةٌ والبَحْرُ هادِئٌ وَقَدْ أَيْقَنْتُ أَنَّ الرُّبَّانَ لَنْ يَسْتَطِيعَ ٱللَّحاقَ بِنا بَعْدَ ذٰلِكَ . فَلَمَّا حانَ ٱلْمَساءُ ، دَنَوْتُ مِنَ الشَّاطِئِ ، واعْتَزَمْتُ قَضاءَ تِلْكَ ٱللَّيْلَةِ بِالْقُرْبِ مِنْهُ .

---

(١) ظهر .

٥ — الْوُحُوشُ الْمُفْتَرِسَةُ

ثُمَّ خَطَرَ لِي أَنْ أَخْرُجَ لَيْلًا إِلَى الشَّاطِئِ لِأَتَعَرَّفَ : أَيْنَ نَحْنُ ؟ وَلٰكِنَّنَا سَمِعْنَا أَصْوَاتًا مُرَوِّعَةً ، وَأَحْسَسْنَا أَنَّ وُحُوشًا تَزْأَرُ بِالْقُرْبِ مِنَّا ؛ فَأَلَحَّ عَلَيَّ الْفَتَى أَلَّا أُغَادِرَ الْمَرْكَبَ حَتَّى لا تَتَعَرَّضَ لِلْهَلَاكِ .

وَقَضَيْنَا لَيْلَتَنَا سَاهِرَيْنِ بِالْقُرْبِ مِنَ الشَّاطِئِ ، وَنَحْنُ مُتَحَفِّزَانِ[١] لِدَفْعِ غَارَةِ هٰذِهِ الْوُحُوشِ[٢] ، إِذَا أَقْبَلَتْ نَحْوَنَا .

وَرَأَيْتُ سِرْبًا مِنْهَا يَتَقَدَّمُ إِلَى مَرْكَبِنَا ؛ فَأَطْلَقْتُ رَصَاصَةً عَلَى أَحَدِهَا ، فَعَادَتِ الْوُحُوشُ أَدْرَاجَهَا ، وَهِيَ تُزَمْجِرُ[٣] ، وَقَدْ تَمَلَّكَهَا الذُّعْرُ حِينَ سَمِعَتْ دَوِيَّ الرَّصَاصِ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهَا بِسَمَاعِهِ عَهْدٌ .



وَاشْتَدَّتْ حَاجَتُنَا إِلَى الْمَاءِ ؛ فَأَرَادَنِي الْفَتَى عَلَى أَنْ أَبْقَى فِي السَّفِينَةِ ، وَأَعْهَدَ إِلَيْهِ أَنْ يَمْلَأَ

---

(١) مُتَهَيِّئَانِ . (٢) هُجُومِهَا . (٣) تَصِيحُ .

الْجَرْأَةَ ، فَسَأَلْتُهُ : لِماذا يَتَشَبَّثُ[1] بِالذَّهابِ ؟

فقالَ لِي : « أُرِيدُ أَنْ أَتَعَرَّضَ لِلْخَطَرِ وَحْدِي . فإذا قُتِلْتُ فِي الطَّرِيقِ سَهُلَ عَلَيْكَ أَنْ تَنْجُوَ بِنَفْسِكَ . »

فَأَكْبَرْتُ[2] إِخْلاصَهُ ، وَأَبَيْتُ إِلَّا الذَّهابَ مَعَهُ . وَرَسَوْنا بِالْقُرْبِ مِنَ الشَّاطِئِ ؛ وابْتَعَدَ الْفَتَى عَنِّي قَلِيلًا ، ثُمَّ عادَ مُسْرِعًا وَقَدِ اصْطادَ أَرْنَبًا ، واهْتَدَى إِلَى مَكانِ الْماءِ . وَثَمَّ[3] أَكَلْنا الْأَرْنَبَ مَسْرُورَيْنِ ، واسْتَأْنَفْنا السَّيْرَ بِالْقُرْبِ مِنَ الشَّاطِئِ .

٦ — صَيْدُ الْأَسَدِ

والْتَفَتَ إِلَيَّ الْفَتَى فَجْأَةً يَخْتَشِي[4] عَلَى أَنْ أَبْعُدَ عَنِ الشَّاطِئِ ، وَكانَ بَصَرُهُ حَدِيدًا[5] ؛ فَلَمَحْتُ أَسَدًا جاثِمًا مِنْ بَعِيدٍ ، وكانَ ضَخْمَ الْجِسْمِ .

وَقَدِ اشْتَدَّ ذُعْرُ الْفَتَى مِنْهُ ؛ فَطَلَبْتُ إِلَيْهِ أَنْ يَسْكُنَ حَتَّى لا يُنَبِّهَ الْأَسَدَ . ثُمَّ حَشَوْتُ بُنْدُقِيَّاتِيَ الثَّلاثَ رَصاصًا ، وَصَوَّبْتُ الْأُولَى إِلَى رَأْسِهِ ، وَهُوَ نائِمٌ . وَكانَ الْأَسَدُ واضِعًا إِحْدَى يَدَيْهِ عَلَى فِيهِ[6] ؛

(١) يصر . (٢) عظمت . (٣) هناك . (٤) يستعجلني . (٥) قوياً . (٦) فمه .



فَأصابَتِ الرَّصاصَةُ ساقَهُ ، فَحَطَّمَتْ عَظْمَها . فَوَقَفَ مَذْعُورًا عَلَى سُوقِهِ الثَّلاثِ . واشْتَدَّ زَئِيرُهُ ؛ فَأَطْلَقْتُ عَلَيْهِ رَصاصَةً ثانِيَةً ، فَخَرَّ(١) صَرِيعًا مُجَدَّلًا(٢) يَتَشَحَّطُ(٣) فى دَمِهِ . وَأَسْرَعَ الْفَتَى إِلَى الْأَسَدِ ، فَأَفْرَغَ رَصاصَةً فِى أُذُنِهِ ؛ فَهَمَدَ الْأَسَدُ مِنْ ساعَتِهِ .

وَقَدْ نَدِمْتُ عَلَى ما فَعَلْتُ ؛ فَقَدْ أَضَعْتُ ثَلاثَ رَصاصاتٍ فِى قَتْلِ الْأَسَدِ ، وَلَيْسَ لنا فِى لَحْمِهِ غِذاءٌ .

---

(١) سقط . (٢) مرتمياً . (٣) يضطرب .

وَأَسْرَعَ ٱلْفَتَى إِلَى الْأَسَدِ ، وَحاوَلَ أَنْ يَقْطَعَ رَأْسَهُ بِفَأْسِهِ ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ ، فاكْتَفَى بِقَطْعِ إِحْدَى يَدَيْهِ ، وَحَمَلها إِلَىَّ . ثُمَّ تَعاوَنَّا عَلَى سَلْخِهِ فِى مَدَى يَوْمٍ كامِلٍ ، وَجَفَّفَتْهُ ٱلشَّمْسُ فِى مَدَى يَوْمَيْنِ ، ثُمَّ أَبْحَرْنا عَشَرَةَ أَيَّامٍ — صَوْبَ ٱلْجَنُوبِ — وَقَدْ أَوْشَكَ زادُنا أَنْ يَنْتَهِيَ . ثُمَّ سِرْنا عَشَرَةَ أَيَّامٍ أُخَرَ ، وَنَحْنُ نَدْعُو اللّٰهَ أَنْ نَلْتَقِيَ بِإِحْدَى ٱلسُّفُنِ ٱلذَّاهِبَةِ مِنْ « أُورُبَّةَ » إِلَى « غانَةَ » أَوِ ٱلْآتِيَةِ مِنْ « غانَةَ » إِلَى « أُورُبَّةَ » . وَلَمْ يَكُنْ يُعَزِّينا[1] فِى رِحْلَتِنا شَيْءٌ سِوَى هٰذا ٱلْأَمَلِ ، فَإِذا أَخْفَقَ فَلَيْسَ أَمامَنا إِلَّا ٱلْهَلاكُ .

٧ — عَلَى الشَّاطِئِ

وَرَأَيْنا جَماعَةً مِنَ الرِّجالِ بِالْقُرْبِ مِنَ ٱلشَّاطِئِ وَهُمْ عُراةٌ . وَقَدْ أَرَدْتُ الذَّهابَ إِلَيْهِمْ، فَحَوَّلَنِيَ ٱلْفَتَى عَنْ هٰذا ٱلْعَزْمِ . وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُمْ أَسْلِحَةٌ ، ما عَدا رَجُلًا مِنْهُمْ كانَ يَحْمِلُ عَصًا صَغِيرَةً . فَأَشَرْتُ إِلَيْهِمْ أَنَّنِي جائِعٌ ، فَطَلَبُوا مِنِّى أَنْ أَرْسُوَ قَرِيبًا . وَأَسْرَعَ ٱثْنانِ مِنْهُمْ فَأَحْضَرا إِلَيَّ خُبْزًا وَقِطْعَتَيْنِ مِنَ ٱللَّحْمِ بَعْدَ نِصْفِ ساعَةٍ .

---

(١) يصبرنا .

وَكُنّا خائفَيْنِ مِنْهُمْ ، كَما كانوا خائفِينَ مِنّا ؛ فَما وَضَعَ الرَّجُلانِ ما أحْضَراهُ لَنا عَلَى الشّاطِئِ حَتّى تَقَهْقَرا رَجاءَ أَنْ يَأمَنا شَرَّنا . فَلَمّا أخَذْنا الزّادَ وَرَجَعْنا إلى السَّفِينَةِ ، عادا إلى الشّاطِئِ عِنْدَ إخْوانِهِما . وَلَمْ يَكُنْ مَعَنا ما نُعْطِيهِمْ إيّاهُ ؛ فاكْتَفَيْنا بِشُكْرِهِمْ .

وَإنّنا لَكَذٰلِكَ ، إذْ أقْبَلَ وَحْشانِ هائِلانِ ، أحَدُهُما يَجْرِى خَلْفَ الآخَرِ مِنَ الجَبَلِ إلى البَحْرِ . فَفَرَّ الرِّجالُ ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إلّا حامِلُ العَصا . ثُمَّ هَوَى الوَحْشانِ إلى البَحْرِ يَسْبَحانِ وَيَلْهُوانِ ، ثُمَّ أقْبَلَ أحَدُهُما إلى مَرْكَبِنا حَتّى كادَ يُدانِينا . فَأطْلَقْتُ رَصاصَةً عَلَى رَأْسِهِ ؛ فَصَرَعَتْهُ مِنْ فَوْرِهِ[1] . وظَلَّ يَهْوِى إلى القاعِ مَرَّةً ، ويَطْفُو[2] عَلَى سَطْحِ الماءِ مَرَّةً أخْرَى ، وهُوَ يَعْدُو[3] نَحْوَ الشّاطِئِ . ولٰكِنَّهُ ماتَ فى مُنْتَصَفِ الطَّرِيقِ ، وهَرَبَ الحَيَوانُ الآخَرُ إلى الجَبَلِ . وَضَجَّ الرِّجالُ إعْجابًا بِنا ، ودَهْشَةً مِنّا . عَلَى أنَّهُمْ قَدِ اشْتَدَّ رُعْبُهُمْ ، وسَقَطَ بَعْضُهُمْ عَلَى الأرْضِ مِنْ شِدَّةِ الذُّعْرِ . فَأشَرْتُ إلَيْهِمْ لِأطَمْئِنَهُمْ حَتّى زالَ خَوْفُهُمْ ، وسَكَنَتْ نُفُوسُهُمْ .

* * *

(١) قتلته الحال . (٢) يعلو . (٣) يجرى .

ثُمَّ تعاوَنُوا عَلَى سَلْخِ ذٰلِكَ ٱلحيَوانِ ، وقَدَّمُوا إِلَيَّ جُزْءًا مِنْ لَحْمِهِ لآكُلَهُ ؛ فَلَمْ أَقْبَلْهُ ، وشَكَرْتُ لَهُمْ ذٰلِكَ ، وٱكْتَفَيْتُ بِجِلْدِ ٱلحيَوانِ ، فَأَعطَوْنِيهِ وَمَعَهُ شَيْءٌ مِنْ زادِهِمْ .

فَقَبِلْتُ هَدِيَّتَهُمْ شاكِرًا مَسْرُورًا ، ثُمَّ أَشَرْتُ إِلَيْهِمْ أَنَّنِي فى حاجَةٍ إِلَى ٱلماءِ ، وَأَعْطَيْتُهُمُ ٱلجَرَّةَ فارِغَةً .



فَفَهِمُوا ما طَلَبْتُ ، وَمَلَئُوها لِي مِنْ فَوْرِهِمْ ثُمَّ حَيَّيْتُهُمْ وٱنْصَرَفْتُ مُسْتَأْنِفًا(١) سَيْرِى نَحْوَ ٱلجَنُوبِ . وما زِلْتُ كَذٰلِكَ أَحَدَ عَشَرَ يَوْمًا .

٨ — ٱلأَمَلُ بَعْدَ ٱليَأْسِ

وَكانَ مَرْكَبِي يَسِيرُ فى ٱلبَحْرِ مُعْتَسِفًا(٢) ، وَقَدْ كِدْتُ أَفْقِدُ ٱلأَمَلَ فِي ٱلنَّجاةِ . وَلَمْ أَكُنْ أَدْرِى إِلَى أَىِّ مَكانٍ أَذْهَبُ ؟ وأَىَّ غايَةٍ أَيَمَّمُ(٣) ؟ وٱشْتَدَّ ٱرْتِباكِى ، وَزادَ نَدَمِى عَلَى ما أَسْلَفْتُ مِنْ عِصْيانِ

(١) عائداً إلى . (٢) ضالا على غير هدى . (٣) أقصد .

وَالِدَىَّ . وَذَكَرْتُ ماجَرَّنِى إِلَيْهِ ٱلْغُرُورُ وَٱلْحَماقَةُ ؛ فاسْتَغْفَرْتُ اللّٰهَ نادِمًا عَلَى ما فَرَطَ مِنِّى ، وَدَعَوْتُهُ أَنْ يُيَسِّرَ لِىَ طَرِيقَ ٱلْخَلاصِ .

وَإِنِّى لَغارِقٌ فى هٰذِهِ التَّأَمُّلاتِ إِذْ أَقْبَلَ ٱلْفَتَى عَلَىَّ وَهُوَ يَصِيحُ ، وَقَدْ كادَ ٱلْخَوْفُ يَعْقِدُ لِسانَهُ : « انْظُرْ هٰذِهِ السَّفِينَةَ ٱلْكَبِيرَةَ ياسَيِّدِى ، فَإِنِّى أَخْشَى أَنْ تَكُونَ سَفِينَةَ ٱلرُّبَّانِ . »

أَمَّا أَنا فَقَدْ كُنْتُ عَلَى يَقِينٍ أَنَّ ٱلرُّبَّانَ لَنْ يَهْتَدِىَ إِلَيْنا .

وَما رَأَيْتُ السَّفِينَةَ حَتَّى عَرَفْتُ ، عَلَى بُعْدِ ٱلْمَسافَةِ ، أَنَّها بُرْتُغالِيَّةٌ .

* * *

وَبَذَلْتُ جُهْدِى فِى ٱلدُّنُوِّ(١) مِنَ ٱلسَّفِينَةِ لِأَتَعَرَّفَ راكِبِيها فَلَمْ أُفْلِحْ ؛ فَيَئِسْتُ مِنَ اللَّحاقِ بِهِمْ . وَلٰكِنَّ أَحَدَهُمْ رَآنِى بِمِجْهَرِهِ(٢) وَقَدْ أَطْلَقْتُ بُنْدُقِيَّتِى ، لِأُشْعِرَهُمْ أَنَّنِى فى خَطَرٍ .

وَقَدِ اسْتَطَعْتُ بَعْدَ جُهْدٍ كَبِيرٍ أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ بَعْدَ ثَلاثِ ساعاتٍ .

وَما عَرَفُوا قِصَّتِى ، حَتَّى أَكْرَمُوا وِفادَتِى(٣) ؛ فَأَهْدَيْتُ إِلَى رُبَّانِ السَّفِينَةِ كُلَّ ما مَعِى ، فَلَمْ يَقْبَلْ شَيْئًا جَزاءً لَهُ عَلَى صُنْعِهِ .

وَقَدْ فاضَ قَلْبِى سُرُورًا بَعْدَ أَنْ تَحَقَّقَ أَمَلِى فِى النَّجاةِ .

---

(١) القرب . (٢) بمنظاره المكبر . (٣) قدومى .

٩ — فِي الطَّرِيقِ إِلَى « الْبَرَازِيلِ »

وكانَتِ السَّفِينَةُ ذاهِبَةً إِلى « الْبَرازِيلِ » . وقَدْ حَظَرَ الرُّبَّانُ عَلَى الْمَلَّاحِينَ أَنْ يَمَسُّوا شَيْئًا مِنْ مَتاعِي . وقَدِ اشْتَرَى مَرْكَبِي بِثَمانِينَ جُنَيْهًا ، واشْتَرَى الْفَتى مِنِّي بِسِتِّينَ جُنَيْهًا . ولَمْ يَكُنْ بَيْعُ الْفَتَى الْمِسْكِينِ بِمَحْضِ رَغْبَتِي[1] ، وما كانَ لِيُرْضِيَنِي أَنْ أَتْرُكَهُ رَقِيقًا[2] ؛ ولٰكِنَّ الرُّبَّانَ وعَدَنِي بِإِطْلاقِ سَراحِهِ[3] بَعْدَ عَشْرِ سَنَواتٍ ، فَقَبِلْتُ ذٰلِكَ مُرْغَمًا .

وكانَتْ رِحْلَةً سَعِيدَةً مُرِيحَةً مُوَفَّقَةً . وقَدْ وصَلْنا إِلَى « الْبَرازِيلِ » بَعْدَ اثْنَيْنِ وعِشْرِينَ يَوْمًا .

١٠ — فِي « الْبَرازِيلِ »

وقَدْ عَرَّفَنِي الرُّبَّانُ بِأَحَدِ أَعْيانِ « الْبَرازِيلِ » — وكانَ يَمْلِكُ مَزْرَعَةً لِلْقَصَبِ ومَصْنَعًا لِلسُّكَّرِ — وأَوْصاهُ بِي خَيْرًا ؛ فَشَكَرْتُ لِلرُّبَّانِ عِنايَتَهُ بِي وفَضْلَهُ عَلَيَّ .

ونَفَعَتْنِي صُحْبَةُ هٰذا الزَّارِعِ الْكَرِيمِ ؛ فَقَدْ عَلَّمَنِي كَيْفَ أَزْرَعُ

(١) خالص إرادتي .   (٢) عبداً .   (٣) تركه حراً .

الْقَصَبَ ، وَكَيْفَ أَصْنَعُ مِنْهُ السُّكَّرَ . وما مَرَّتْ عَلَيَّ أَرْبَعَةُ أَعْوامٍ حَتَّى نَجَحَتْ أَعْمالِي كُلُّها، وأَصْبَحْتُ فِي رَغَدٍ مِنَ الْعَيْشِ .

وكُنْتُ كُلَّما ذَكَرْتُ وَطَنِي تَأَلَّمْتُ لِفِراقِهِ، واشْتَدَّ حَنِينِي إِلَيْهِ ، ونَدَمِي عَلَى تَرْكِهِ .

* * *

وتَعَرَّفْتُ — فِي أَثْناءِ إِقامَتِي — بِكَثِيرٍ مِنَ الزّارِعِينَ فِي تِلْكَ الْبِلادِ . فَكُنّا نَسْمُرُ[1] فِي بَعْضِ الْأَيّامِ ، وكُنْتُ أَذْكُرُ لَهُمْ ما وَقَعَ لِي فِي أَثْناءِ رِحْلَتِي إِلَى « غانَةَ » ؛ وكَيْفَ ظَفِرْتُ بِأَمْوالٍ طائِلَةٍ مِنَ الاتِّجارِ بِأَشْياءَ تافِهَةٍ كالْمِقَصّاتِ والْمُدَى[2] والْمَرايا وَما إِلَى ذٰلِكَ . فاشْتَدَّتْ رَغْبَتُهُمْ فِي السَّفَرِ إِلَى « غانَةَ » ، وأَعَدُّوا سَفِينَةً كَبِيرَةً ، وطَلَبُوا إِلَيَّ أَنْ أُرافِقَهُمْ فِي هٰذِهِ الرِّحْلَةِ ؛ فَعاوَدَنِي الْحَنِينُ إِلَى الْبَحْرِ ، وعَهِدْتُ إِلَى بَعْضِ أَصْحابِي أَنْ يُعْنَى بِمَزْرَعَتِي ومَصْنَعِي فِي أَثْناءِ غِيابِي .

ثُمَّ أَبْحَرَتْ بِنا السَّفِينَةُ فِي أَوَّلِ سِبْتَمْبِرَ ١٦٥٩ م ، وهُوَ نَظِيرُ الْيَوْمِ الَّذِي غادَرْتُ فِيهِ وَطَنِي واسْتَقْبَلْتُ بِهِ عَهْدَ الشَّقاءِ ، مُنْذُ ثَمانِيَةِ أَعْوامٍ .

---

(١) نتحدث بالليل . (٢) السكاكين .

الفصل الثالث

فى جَزِيرَةٍ نَائِيَةٍ

١ – هُبُوبُ الْعاصِفَةِ

كانَتِ السَّفِينَةُ الَّتى أَعْدَدْناها[1] لِهٰذِهِ الرِّحْلَةِ سَفِينَةً كَبِيرَةً ، قادِرَةً عَلَى حَمْلِ مِائَةٍ وعِشْرِينَ طُنًّا . وقَدْ زَوَّدْناها بِسِتَّةِ مَدافِعَ ، وأَخْتَرْنا لَها أَرْبَعَةً وعِشْرِينَ مَلَّاحًا .



وقَدْ وَضَعْنا فِيها الْبَضائِعَ الَّتى شَرَيْناها لِنَتَّجِرَ بِها فى بِلادِ « إِفْرِيقِيَّةَ » ؛ وهِىَ

(١) هيأناها .

مُؤَلَّفَةٌ مِنْ مِقَصَّاتٍ وفُئُوسٍ ومَطارِقَ ومَرايا صَغِيرَةٍ وأَزِرَّةٍ لِلمَلابِسِ وَما إِلَى ذٰلِكَ .

ثُمَّ أَبْحَرَتْ بِنا السَّفِينَةُ مُيَمِّمَةً(١) شاطِئَ « إِفْرِيقِيَّـــةَ » .

وقَدْ هَبَّتْ عَلَيْنا — فى الْيَوْمِ الثَّالِثَ عَشَرَ — عاصِفَةٌ هَوْجاءُ لَبِثَتِ اثْنَىْ عَشَرَ يَوْماً ، لا تَهْدَأُ إِلَّا رَيْثَما تَشْتَدُّ وتَعْنُفُ ، وَلا تَمُرُّ بِنا لَحْظَةٌ إِلَّا أَنْذَرَتْنا بِالْغَرَقِ .

وهٰـكَذا ظَلِلْنا نَتَرَقَّبُ الْهَلاكَ بَيْنَ حِينٍ وَحِينٍ ، بَعْدَ أَنْ ضَلَلْنا طَرِيقَنَا فى الْبَحْرِ، خِلالَ هٰذِهِ الأَيَّامِ الَّتى هَبَّتْ فِيها الْعاصِفَةُ .

٢ — زَوْرَقُ النَّجاةِ

ثُمَّ رأَيْنا — عِنْدَ طُلُوعِ الْفَجْرِ — أَرْضاً تَبْدُو لَنا مِنْ بَعِيدٍ ؛ فَلاحَ لَنا أَمَلٌ كَبِيرٌ فى النَّجاةِ . ولٰـكِنَّنا لَمْ نَلْبَثْ أَنْ فَقَدْنا ذٰلِكَ الأَمَلَ ، وحَلَّ مَحَلَّهُ الْيَأْسُ والْقُنُوطُ . فَقَدْ قَذَفَتِ الْعاصِفَةُ بِسَفِينَتِنا إلى كَثِيبٍ(٢) مِنَ الرَّمْلِ . وكانَتِ الصَّدْمَةُ قَوِيَّةً عَنِيفَةً ؛

(١) قاصدة . (٢) تل .



فَتَعطَّلَتِ السَّفِينَةُ ، وغَمرَتْهـا الأَمْواجُ الْهائِجَةُ ؛ فَلَمْ نَجِدْ مِنَ الْهَـلاكِ بُدًّا ، وعَرَفْنا أَنَّ آخِرَتَنا قَدْ دَنَتْ .

عَلَى أَنَّنـــا لَمْ نَسْتَسْلِمْ لِلْيأْسِ ؛ فَأَسْرَعْنا إِلَى زَوْرَقِ النَّجَاةِ ، فَأَنْزَلْناهُ فى الْبَحْرِ ، وبَذَلْنا كُلَّ ما فى وُسْعِنا لِلْخَلاصِ . وظَلِلْنا نَجْدُفُ بِكُلِّ قُوانا ، حَتَّى أَصْبَحْنا عَلَى مَسافَةِ مِيلٍ ونِصْفِ مِيلٍ مِنَ الشَّاطِئِ ، حَيْثُ دَهِمَتْنا[١] مَوْجَةٌ طاغِيَةٌ ؛ فَخُيِّلَ إِلَيْنا أَنَّ جَبَلًا مِنَ الْماءِ قَد انْقَضَّ[٢] عَلَيْنا ، فانْقَلَبَ الزَّوْرَقُ فى الْحالِ .

ولَمْ أَرَ بِجانِبِى أَحَدًا مِنْ رِفاقِى ، ولَمْ أَعْلَمْ بَعْدَ ذٰلِكَ مَصِيرَهُمْ[٣].

---

(١) غمرتنا . (٢) سقط . (٣) نهايتهم .

٣ — النَّجاةُ مِنَ الْغَرَقِ

أَمَّا أنا فَقَدْ لَعِبَتْ بِيَ الأَمْواجُ ، ثُمَّ قَذَفَتْ بِي إِلَى صَخْرَةٍ كَبيرَةٍ ، وكانَتِ الصَّدْمَةُ عَنيفَةً ، فَأُغْمِيَ عَلَيَّ ، ثُمَّ أَفَقْتُ بَعْدَ قَليلٍ . وكانَ مِنْ حُسْنِ حَظِّي أَنِّي أَفَقْتُ قَبْلَ أَنْ يَسْتَأْنِفَ الْبَحْرُ ثَوْرَتَهُ .

وَما رأَيْتُ الْمَوْجَةَ قادِمَةً عَلَيَّ — لِتَبْتَلِعَنِي فِي طَيِّها — حَتَّى أَمْسَكْتُ بِالصَّخْرَةِ مُتَشَبِّثًا بِكُلِّ قُوَّتِي ، حَتَّى تَنْحَدِرَ[1] الْمِياهُ عَنِّي .

ثُمَّ هَدَأَتْ ثائِرَةُ الْبَحْرِ قَليلًا ؛ فَحاوَلْتُ إِمْكانِي ، وبَذَلْتُ جُهْدِي ، حَتَّى بَلَغْتُ الشَّاطِئَ ، وأَنا لا أَكادُ أُصَدِّقُ بِالنَّجاةِ مِنَ الْغَرَقِ .

٤ — بَعْدَ النَّجاةِ

وشَعَرْتُ بِفَرَحٍ شَديدٍ حينَ رَأَيْتُنِي قَدْ نَجَوْتُ مِنَ الْهَلاكِ . وأَجَلْتُ لِحاظِي[2] فِي أَنْحاءِ الْبَحْرِ ، أَتَلَمَّسُ رُؤْيَةَ أَحَدٍ مِنْ رِفاقِي ؛

(١) تنصرف . (٢) أدرت عيني .

فَلَمْ أَرَ إِلَّا قُبَّعاتٍ ثَلاثاً، وقَلَنْسُوَةً(١)، وَنَعْلًا، طافِيَةً عَلَى سَطْحِ ٱلماءِ. فَأَيْقَنْتُ أَنَّ رِفاقِي جَمِيعاً قَدْ هَلَكُوا، وَلَمْ تُكْتَبْ لَهُمُ النَّجاةُ.

وَقَدْ تَأَلَّمْتُ لِمَوْتِ هٰؤُلاءِ ٱلأَصْحابِ، كَما تَأَلَّمْتُ لِنَفْسِي أَيْضًا؛ فَقَدْ كُنْتُ — حِينَئِذٍ — فِي حالٍ يُرْثَى لَها(٢)، فَثِيابِي مُبْتَلَّةٌ، وَلَيْسَ مَعِي ثِيابٌ أَسْتَبْدِلُها بِها.

وَشَعَرْتُ بِأَلَمِ الْجُوعِ، وَلَيْسَ عِنْدِي ما أَتَبَلَّغُ بِهِ(٣). وَأَلَحَّ(٤) عَلَيَّ الضَّعْفُ، وَتَخاذَلَتْ أَعْضائِي، وَلَمْ أَجِدْ سَبِيلًا لِاسْتِرْدادِ قُوايَ بَعْدَ أَنْ أَضْناها ٱلتَّعَبُ وٱلْكِفاحُ.

(١) غطاء رأس (٢) تدعو إلى الشفقة. (٣) ما أستبقي به الحياة من الطعام (٤) اشتد.

٥ — بَيْنَ أغصانِ شَجَرَةٍ

وَخَشِيتُ أنْ يَدْهَمَنِي(١) اللَّيْلُ ؛ فَأُصْبِحَ فَرِيسَةً لِلْوُحُوشِ ، وَلَيْسَ مَعِي سِلاحٌ أصْطادُ بِهِ — مِنَ الحَيَوانِ — ما أَقْتاتُ بِهِ ، أوْ أدْفَعُ بِهِ عَنِّي غائِلَةَ الْوُحُوشِ الْعادِيَةِ(٢) إذا حاوَلَتِ افْتِراسِي . فَلَمْ يَكُنْ لَدَيَّ — حِينَئِذٍ — غَيْرُ مُدْيَةٍ(٣) لاغَناءَ فِيها(٤) . فَتَمَثَّلَ لِي حَرَجُ مَرْكَزِي ، ورَأيتُ الْمُسْتَقْبَلَ مَرْهُوباً(٥) مُظْلِماً . وصِرْتُ أعْدُو(٦) فِي كُلِّ مَكانٍ ، وَقَدْ أَذْهَلَنِيَ الْفَزَعُ ، وأنْسانِيَ الْخَوْفُ كُلَّ شَيْءٍ .

ثُمَّ أقبَلَ اللَّيْـلُ ؛ فاشْتَدَّ رُعْبِي ، وَلَمْ أجِدْ لِي مَناصاً(٧) مِنَ التَّفْـكِيرِ فِي مَكانِ نَوْمِي . فَتَخَيَّرْتُ شَجَرَةً كَبِيرَةً بِالْقُرْبِ مِنِّي ، وَجَلَسْتُ بَيْنَ أغْصانِها الْمُشْتَبِكَةِ . وَكُنْتُ قَدْ وصَلْتُ إلَى أقصَى دَرَجاتِ الْإعْياءِ والتَّعَبِ ؛ فَغَلَبَنِي النَّوْمُ طُولَ لَيْلِي ، وَلَمْ أسْتَيْقِظْ

(١) يفاجئني . (٢) شر الحيوانات المفترسة . (٣) سكينة . (٤) لا فائدة منها .
(٥) مخوفاً . (٦) أجري . (٧) نجاة .



إلّا في ضُحَى ٱلْغَدِ ؛ فرأيتُ الشّمْسَ مُشْرِقَةً ، والْجَوّ صَحْوًا ، والْبَحْرَ هادِئًا جَمِيلًا .

٦ — السّفِينَةُ

وَأجَلْتُ لِحاظِي[1] في أرْجاءِ الْبَحْرِ ؛ فاشْتَدّتْ دَهْشَتِي حِينَ رَأيتُ السّفِينَةَ جاثِمةً[2] عَلَى بُعْدِ مِيلٍ مِن الْجَزِيرَةِ . وكانَ الْمَدُّ[3] قَدْ أخْرَجَها مِنَ الْكَثِيبِ[4] ، وقَذَفَ بِها قَرِيبًا مِنَ الصّخْرَةِ الّتِي قَذَفَتْنِي

(١) درت ببصرى . (٢) باقية . (٣) امتداد الماء . (٤) التل من الرمل .

إِلَيْها الأَمْواجُ أَمْسِ . فَعَنَّ(١) لِي رَأْيٌ سَدِيدٌ(٢) ، ذٰلِكَ : هُوَ أَنْ أُسْرِعَ إِلَيْها ، فَآخُذَ مِنْها أَهَمَّ ما أَحْتاجُ إِلَيْهِ فِي هٰذِهِ ٱلْجَزِيرَةِ ٱلْمُقْفِرَةِ ، قَبْلَ أَنْ تَطْغَى ٱلْأَمْواجُ على السَّفِينَةِ ، وَيَطْوِيَها الْبَحْرُ فِي قَرارِهِ . وشَجَّعَنِي عَلَى ذٰلِكَ هُدُوءُ الْبَحْرِ وانْخِفاضُ ٱلْمَدِّ .

وَكانَتِ ٱلْحَرارَةُ شَدِيدَةً وقْتَ ٱلظَّهِيرَةِ ؛ فَخَلَعْتُ ثِيابِي ، وسَبَحْتُ فِي الْماءِ حَتَّى بَلَغْتُ السَّفِينَةَ . وَدُرْتُ حَوْلَها ؛ فَلَمْ أَجِدْ وَسِيلَةً لِلصُّعُودِ إِلَيْها لِارْتِفاعِها . وقَدْ كِدْتُ أَيْأَسُ مِنْ إِدْراكِ هٰذِهِ ٱلْغايَةِ ، لَوْلا أَنَّنِي ظَفِرْتُ بِحَبْلٍ مُتَدَلٍّ ؛ فَتَعَلَّقْتُ بِهِ حَتَّى صَعِدْتُ إِلَى ظَهْرِ ٱلسَّفِينَةِ بَعْدَ عَناءٍ شَدِيدٍ . ورَأَيْتُ الْماءَ قدْ نَفَذَ إِلَى أَرْضِ السَّفِينَةِ ؛ ولٰكِنَّهُ لَمْ يَبْلُغْ سَطْحَها ، وَلَمْ يُتْلِفْ كُلَّ ما تَحْوِيهِ مِنْ مُئُونَةٍ وذَخائِرَ . وكانَ أَوَّلَ ما يَشْغَلُنِي — حِينَئِذٍ — هُوَ ٱلْبَحْثُ عَنِ الطَّعامِ والْماءِ . فأَكَلْتُ مِنَ ٱلزَّادِ حَتَّى شَبِعْتُ ، وشَرِبْتُ مِنَ ٱلْماءِ حَتَّى ٱرْتَوَيْتُ .

---

(١) خطر . (٢) صائب .

٧ — الْمَرْكَبُ الصَّغِيرُ

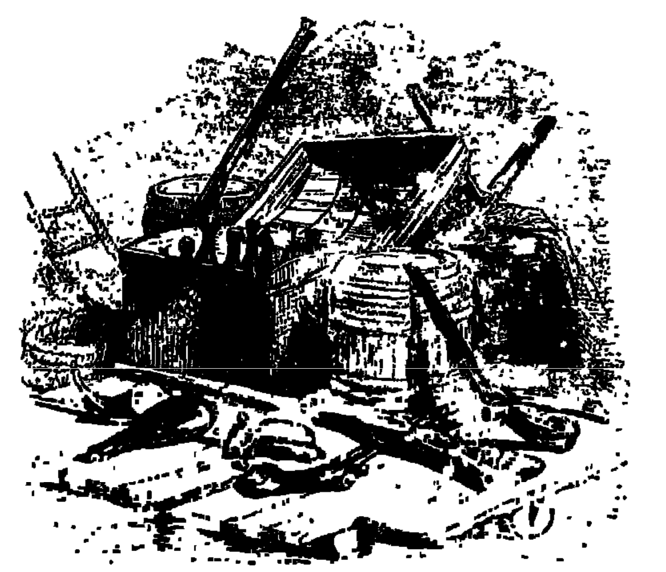
ولَمْ أُضِعْ وَقْتِي عَبَثاً . فَأَسْرَعْتُ إلَى جَمْعِ الْأَلْوَاحِ الْمُتَنَاثِرَةِ ، والْأَعْمِدَةِ الْمُحَطَّمَةِ ، والْأَشْرِعَةِ الْمُمَزَّقَةِ ، وأَلَّفْتُ مِنْها مَرْكَباً صَغِيراً . ثُمَّ كَسَرْتُ ثَلاثَةَ صَنادِيقَ وأَفْرَغْتُ ما فِيها . ثُمَّ أَنْزَلْتُها بِالحِبالِ إلى ذٰلِكَ الْمَرْكَبِ الصَّغِيرِ ، ومَلَأْتُها بِالْخُبْزِ والرُّزِّ والْجُبْنِ والْقَدِيدِ[١] ورَأَيْتُ فِي الْمَخْزَنِ كَمِّيَّةً قَلِيلَةً مِنَ الْقَمْحِ والشَّعِيرِ والْبُرْغُلِ ، كُنَّا قَدْ أَحْضَرْناها لِتَغْذِيَةِ طُيُورِنا ودَواجِنِنا ؛ فوَضَعْتُها فِي أَحَدِ الصَّنادِيقِ .

(١) اللحم اليابس المحفوظ .

وإنِّى لَمُنْهَمِكٌ فى عَمَلِى ، إذْ لاحَتْ مِنِّى الْتِفاتَةٌ ؛ فَرَأَيْتُ الْمَدَّ يَرْتَفِعُ إلى الشَّاطِئِ وَيَجْذِبُ ثِيابِى الْغَرِيقَةَ . وَقَدْ تَأَلَّمْتُ حِينَ رَأَيْتُها طافِيَةً عَلَى وَجْهِ الْماءِ .

* * *

عَلَى أَنَّنِى رَأَيْتُ فِى السَّفِينَةِ — مِنَ الثِّيابِ — ما عَوَّضَنِى عَنْها . فَأَخَذْتُ مِنْها ما اسْتَطَعْتُ ، وحَمَلْتُ مَعِى — مِنَ الْآلاتِ وَالْعُدَدِ — ما لا غِنَى لِىَ عَنْهُ . وَقَدْ ظَفِرْتُ بِصُنْدُوقِ نَجَّارٍ ؛ فَكانَ عِنْدِى أَثْمَنَ مِنْ كُنُوزِ الْأَرْضِ قاطِبَةً[1] ، فَأَلْقَيْتُ بِهِ فِى الْمَرْكَبِ الصَّغِيرِ .



* * *

وَظَفِرْتُ — فِى أَثْناءِ بَحْثِى — بِمُسَدَّسَيْنِ وَبُنْدُقِيَّتَيْنِ وَسَيْفَيْنِ قَدِيمَيْنِ يَعْلُوهُما

(١) جميعاً .

الصَّدَأُ ،وَكِيس مِنَ الرَّصاصِ، وَعِدَّةِ أَكْياسٍ من الْبارُودِ .

وَكانَ بِالسَّفِينَةِ بَرامِيلُ ثَلاثَةٌ مَمْلُوءَةٌ بارُودًا ، فَبَحَثْتُ عَنْها حَتَّى اهْتَدَيْتُ إِلَيْها ؛ فَرَأَيْتُ الْماءَ قَدْ أَتْلَفَ بِرْمِيلًا مِنْها . فَحَمَلْتُ الْبِرْمِيلَيْنِ الْباقِيَيْنِ إِلَى الْمَرْكَبِ ، وَلَمْ يَبْقَ عَلَيَّ إِلَّا أَنْ أَذْهَبَ بِمَرْكَبِي إِلى الشَّاطِئِ .وَظَفِرْتُ — بَعْدَ بَحْثٍ طَويلٍ — بِثَلاثَةِ مَجادِيفَ مُحَطَّمَةٍ ، وَمِنْشَارَيْنِ وَمِطْرَقَةٍ ؛ فاسْتَوْدَعْتُها سَفِينَتِي[1] .

وَحَمَلَنِيَ الْمَدُّ إِلَى الشَّاطِئِ ، حَيْثُ انْتَهَى بِي إِلى مكانٍ لا يَبْعُدُ كَثِيرًا عَنِ الْمَكانِ الَّذِي حَلَلْتُ فيهِ أَمْسِ .

(١) حفظتها فيها .

الفصل الرابع

الوطنُ الجديد

١ — عَلَى قِمَّةِ جَبَلٍ

كان أَوَّلَ ما عُنِيتُ بِهِ أَنْ أَرْتادَ[1] هٰذِهِ ٱلْأَرْضَ ٱلمَجْهُولَةَ ٱلَّتى قَذَفَتْنِى إِلَيْها ٱلمَقادِيرُ، لَعَلِّى أَهْتَدِى إلى مَسْكَنٍ آوِى إِلَيْهِ.

وَكُنْتُ — حِينَئِذٍ — أَجْهَلُ كُلَّ شَىْءٍ فِي تِلْكَ الْأَرْضِ. فَلَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ: هَلْ قَذَفَتْنِىَ ٱلْأَمْواجُ إِلَى جَزِيرَةٍ أَمْ قارَّةٍ؟ إِلَى أَرْضٍ مَأْهُولَةٍ، أَمْ مُوحِشَةٍ؟ إِلَى مَكانٍ أَمِينٍ مُطْمَئِنٍّ، أَمْ مَخُوفٍ مَرْهُوبٍ؟ إلى أَرْضٍ يَقْطُنُها ٱلْمُتَحَضِّرُونَ، أَمِ ٱلْهَمَجُ، أَمِ ٱلْوُحُوشُ ٱلْمُفْتَرِسَةُ؟

وَأَجَلْتُ لِحاظِي فِي أَنْحائِها؛ فَرَأَيْتُ جَبَلًا شاهِقًا يَلُوحُ لِي عَلَى مَسافَةِ مِيلٍ تَقْرِيبًا. فَأَخَذْتُ بُنْدُقِيَّةً وَمُسَدَّسًا، وَسِرْتُ حَتَّى بَلَغْتُهُ. فَرَأَيْتُهُ وَعْرَ الْمُرْتَقَى[2]، وَلَمْ أَبْلُغْ قِمَّتَهُ إِلَّا بَعْدَ عَناءٍ شَدِيدٍ.

---

(١) أتعرف. (٢) صعب المصعد

وَقَدْ تَمَلَّكَنِيَ الْحُزْنُ والْأَلَمُ ، إذْ عَرَفْتُ أَنَّ الْمكانَ الَّذِى حَلَلْتُهُ لَيْسَ إِلَّا جَزِيرَةً . وكُنْتُ – كَيْفَما أَدَرْتُ لِحَاظِي – لا أَجِدُ إِلَّا الْبَحْرَ يَكْتَنِفُ هٰذِهِ الْجَزِيرَةَ[1] ، وشَبَحَ جَزِيرَتَيْنِ صَغِيرَتَيْنِ تَلُوحانِ لِي عَلَى بُعْدِ ثَلاثَةِ أَمْيالٍ غَرْبًا .

وَرَأَيْتُ أَنَّ الْجَزِيرَةَ الَّتِى حَلَلْتُها عازِبَةٌ[2] ، قَفْراءُ غَيْرُ مَأْهُولَةٍ[3] ، اللّٰهُمَّ إِلَّا أَنْ يَكُونَ فِيها وُحُوشٌ مُفْتَرِسَةٌ . أَمَّا الْإِنْسُ فَلا سَبِيلَ إِلَى وُجُودِهِمْ فِى هٰذِهِ الْجَزِيرَةِ الْمُجْدِبَةِ الْقاحِلَةِ[4] .

٢ – الطَّلْقَةُ الْأُولَى

عَلَى أَنَّنِى رَأَيْتُ جَمْهَرَةً[5] مِنَ الطُّيُورِ الْغَرِيبَةِ – وَأَنا عائِدٌ إِلَى حَيْثُ جِئْتُ – فَصَوَّبْتُ بُنْدُقِيَّتِي إِلَى طائِرٍ مِنْها كانَ عَلَى شَجَرَةٍ مِنْ أَشْجارِ الْغابَةِ الْقَرِيبَةِ مِنِّى .

ولَعَلَّ هٰذِهِ هِىَ أَوَّلُ مَرَّةٍ تُطْلَقُ فِيها بُنْدُقِيَّةٌ فِى تِلْكَ الْجَزِيرَةِ ! وَقَدْ ذُعِرَتِ الطُّيُورُ حِينَ سَمِعَتْ هٰذِهِ الطَّلْقَةَ الْمُفْزِعَةَ ، واشْتَدَّ

---

(١) يحيط بها . (٢) بعيدة . (٣) لا يسكنها أحد .
(٤) التى لا نبات فيها . (٥) جماعة .

ارْتِباكُها ، وَعَلَتْ صَيْحاتُها . ورَأَيْتُ هٰذا الطَّائِرَ يُشْبِهُ الْباشِقَ ، وإنْ كانَ قَليلَ اللَّحْمِ ، لا يُسْمِنُ ولا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ .

٣ – كُوخٌ مِنْ صَنادِيقَ

ثُمَّ عُدْتُ أَدْراجِي[١] ، وَظَلِلْتُ أُفْرِغُ ما أَحْضَرْتُهُ مِنَ السَّفِينَةِ وَأُرَتِّبُهُ ، حَتَّى انْقَضَى النَّهارُ ، وَأَقْبَلَ اللَّيْلُ ؛ فَلَمْ أَدْرِ كَيْفَ أَنامُ مُطْمَئِنًّا ، آمِناً مِنْ غارَةِ الْوُحُوشِ الْمُفْتَرِسَةِ ؟ ثُمَّ اهْتَدَيْتُ – بَعْدَ افْتِكارٍ طَوِيلٍ – إلى طَرِيقَةٍ ناجِحَةٍ ؛ فَأَدْنَيْتُ[٢] الصَّنادِيقَ الَّتى أَحْضَرْتُها مِنَ السَّفِينَةِ ، ثُمَّ اتَّخَذْتُ مِنْها كُوخًا آوِى إلَيْهِ فِى تِلْكَ اللَّيْلَةِ . وَرَأَيْتُنِى فِى حاجَةٍ إلى حِبالِ السَّفِينَةِ وَأَشْرِعَتِها ؛ فَنَوَيْتُ الذَّهابَ إلَيْها فى الْيومِ التَّالى وَقْتَ انْخِفاضِ الْمَدِّ ، قَبْلَ أَنْ تُغْرِقَها أَوَّلُ عاصِفَةٍ تَهُبُّ عليْها مِنَ الْبَحْرِ .

٤ – عَوْدَةٌ إلَى السَّفِينَةِ

ولَمَّا جاءَ الْغَدُ خَلَعْتُ مَلابِسِى إلَّا قَمِيصًا مُمَزَّقًا وسِرْوالًا ونَعْلًا خَفِيفَةً ،

(١) رجعت من حيث أتيت . (٢) قربت .

وذَهَبْتُ إلى السَّفينَةِ ، وأَحْضَرْتُ منْها كَثيرًا منَ الذَّخائِرِ (١) الَّتى كُنْتُ فِى أَشَدِّ الحاجَةِ إِلَيْها . وقدْ ظَفِرْتُ بِزِرارَتَيْنِ (٢) مَمْلوءَتَيْنِ مَساميرَ ، كَما ظَفِرْتُ بِعُدَّةِ النِّجارَةِ ، وفيها مِسَنٌّ ، واثْنَتا عَشْرَةَ قَدُومًا ، وغَيْرُ ذٰلِكَ . وجَمَعْتُ كلَّ ما وجَدْتُهُ — مِنَ الثِّيابِ وأَشْرِعَةِ السَّفينَةِ والأَغْطِيَةِ — وعُدْتُ إلى كُوخِيَ الصَّغيرِ . وقدْ شَجَّعَنى هٰذا النَّجاحُ ، وأَكْسَبَنِي قُوَّةً ونَشاطًا عَظِيمَيْنِ . وكُنْتُ أَخْشَى أَنْ تَلْتَهِمَ بَعْضُ الْوُحُوشِ ما تَرَكْتُهُ مِنَ الزّادِ (٣) ، ولٰكِنَّنِي اطْمَأْنَنْتُ — بَعْدَ عَوْدَتِى — وزالَتْ مَخاوِفِى ؛ إِذْ لَمْ أَعْثُرْ لِهٰذِهِ الْوُحُوشِ عَلَى أَثَرٍ . عَلَى أَنَّنِى رَأَيْتُ حَيَوانًا — أَشْبَهَ شَيْءٍ بِالْقِطِّ — جالِسًا عَلَى أَحَدِ الصَّناديقِ . وما رَآنِى حَتَّى فَرَّ مِنِّى ، ثُمَّ وقَفَ عَلَى بُعْدِ خُطُواتٍ قَلِيلَةٍ ، وظَلَّ يُنْعِمُ (٤) نَظَرَهُ فِىَّ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَبْدُوَ عَلَى مَلامِحِهِ الْخَوْفُ . فَصَوَّبْتُ إِلَيْهِ بُنْدُقِيَّتِى ، فَلَمْ يَتَحَرَّكْ ، ولَمْ يُحاوِلِ الْفِرارَ . فَأَلْقَيْتُ إِلَيْهِ قِطْعَةً مِنَ الْخُشْكُنانِ (٥) ، فاقْتَرَبَ مِنْها وشَمَّها وتَذَوَّقَها ، ثُمَّ ابْتَلَعَها مِنْ فَوْرِهِ ، وبَدا عَلَى مَلامِحِهِ السُّرُورُ . فَعَلِمْتُ أَنَّهُ يَطْلُبُ غَيْرَها ، فَلَمْ أُعْطِهِ شَيْئًا ، لِأَنَّ زادِيَ قَلِيلٌ ،

(١) الأشياء الثمينة المحفوظة . (٢) زكيبتين . (٣) الطعام الذى يتخذ للسفر .
(٤) يدقق . (٥) البسكويت .

ولَيْسَ مِنَ ٱلحِكْمَةِ أنْ أُسْرِفَ(١) فِي ٱلأَخْذِ مِنْهُ .

ولَمَّا يَئِسَ ٱلقِطُّ مِنْ عَطائِي ، ذَهَبَ إلى سَبِيلِهِ !

٥ — إِعْدادُ ٱلمَسْكَنِ

وفَكَّرْتُ فِي إِعْدادِ مَسْكَنٍ يُؤَمِّنُنِي مِنَ ٱلوُحُوشِ ، ويَحْفَظُ أَمْتِعَتِي مِنَ التَّلَفِ ، ويَقِيها غائِلَةَ ٱلأَمْطارِ وحَرارَةَ الشَّمْسِ . فَبَنَيْتُ خَيْمَةً مِنَ ٱلشِّراعِ ٱلَّذِي أحْضَرْتُهُ ، وثَبَّتُّها بِالأَوْتادِ(٢) ، ووَضَعْتُ فِي تِلْكَ ٱلخَيْمَةِ كلَّ ما أحْضَرْتُهُ مِنَ السَّفِينَةِ . ثُمَّ سَوَّرْتُ ٱلخَيْمَةَ(٣) بِالصَّنادِيقِ وٱلبَرامِيلِ ، وسَدَدْتُ بابَها مِنَ ٱلدَّاخِلِ بِألواحٍ مِنَ ٱلخَشَبِ ، ووَضَعْتُ خَلْفَها صُنْدُوقًا فارِغًا . ثمَّ وضَعْتُ مُسَدَّسَيْنِ تَحْتَ وِسادَتِي ، ونِمْتُ أَهْدَأَ ما أَكُونُ بالًا حَتَّى مَطْلَعِ ٱلفَجْرِ .

٦ — ذَخائِرُ السَّفِينَةِ

ولَقَدْ شَعَرْتُ أَنَّنِي حَصَلْتُ عَلَى ما يَكْفِينِي ، بَلْ ما يَزِيدُ عَلَى حاجَتِي .

---

(١) أكثر . (٢) قطع من الخشب ونحوه مثبتة في الأرض . (٣) جعلت لها سوراً .

ولٰكِنَّ بَقاءَ ٱلسَّفِينَةِ أَطْمَعَنِي فِي ٱلْحُصُولِ عَلَى كُلِّ ذَخائِرِها ، ما دُمْتُ قادِرًا عَلَى ٱلذَّهابِ إِلَيْها ، فَلَمْ يَهْدَأْ لِي بالٌ ، ولَمْ يَقِرَّ لِي قَرارٌ . وعَقَدْتُ ٱلْعَزْمَ عَلَى ٱلتَّزَوُّدِ(١) مِنْها كُلَّ يَوْمٍ . وقَدْ ذَهَبْتُ إِلَيْها — بَعْدَ ذٰلِكَ — سِتَّةَ أَيَّامٍ مُتَعاقِبَةً(٢) ، وَخُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّنِي قَدْ أَفْرَغْتُ كُلَّ ما فِيها مِنْ زادٍ وذَخائِرَ . ولٰكِنَّنِي دَهِشْتُ فِي ٱلْيَوْمِ ٱلسَّابِعِ ؛ إِذْ وَجَدْتُ بِرْمِيلًا كَبِيرًا مَمْلُوءًا خُشْكَنانًا(٣) . فَأَفْرَغْتُهُ ، بَعْدَ أَنْ وضَعْتُهُ فِي قِطَعٍ مِنَ ٱلْأَشْرِعَةِ ، ثُمَّ عُدْتُ إِلى خَيْمَتِي مَسْرُورًا راضِيًا .

٧ — الزَّوْرَةُ الْأَخِيرَةُ

وذَهَبْتُ فِي ٱلْيَوْمِ ٱلتَّالِي إِلى ٱلسَّفِينَةِ — كَعادَتِي — ولٰكِنَّنِي شَعَرْتُ بِهُبُوبِ ٱلرِّياحِ ، فَلَمْ أُبالِ ، وَلَمْ أَنْثَنِ(٤) عَنْ عَزِيمَتِي . وقَدْ ظَفِرْتُ فِي هٰذِهِ ٱلرِّحْلَةِ بِثَلاثِ مَواسٍ(٥) ، وكانَتْ فِي غُرْفَةِ الرُّبَّانِ ، كَما ظَفِرْتُ بِمِقَصَّيْنِ صَغِيرَيْنِ وعِدَّةِ مَلاعِقَ ، وما إِلَى ذٰلِكَ مِنَ ٱلْأَدَواتِ ٱلنَّافِعَةِ . ثُمَّ لاحَتْ مِنِّي ٱلْتِفاتَةٌ ، فَرَأَيْتُ سِتَّةً وثَلاثِينَ جُنَيْهًا مِنَ ٱلذَّهَبِ والْفِضَّةِ .

---

(١) الأخذ . (٢) متوالية . (٣) بسكويتاً . (٤) لم أرجع .

(٥) جمع موسى ، وهى الآلة التى يحلق بها .

فابْتَسَمْتُ — حِينَئِذٍ — ساخِرًا؛ فَلَمْ تَكُنْ لِي بِهٰذِهِ ٱلنُّقُودِ حاجَةٌ فِي تِلْكَ الْجَزِيرَةِ النَّائِيَةِ . ولقَدْ هَمَمْتُ بِإِلْقائِها فِي ٱلْبَحْرِ ، ثُمَّ رَجَعْتُ عَنْ ذٰلِكَ ، ووضَعْتُها فى صُرَّةٍ مِنَ الْخَيْشِ . ورأَيتُ السَّماءَ تَتَلَبَّدُ بِالْغُيُومِ ؛ فَأَسْرَعْتُ بِالْعَوْدَةِ إلى كُوخِي . وقَدْ لَقِيتُ عَناءً شَدِيدًا فِي مُغالَبَةِ ٱلْأَمْواجِ ، وَلٰكِنَّنِي وَصَلْتُ إِلَى الشَّاطِئِ سالِمًا بِحَمْدِ ٱللهِ .

٨ — غَرَقُ السَّفِينَةِ

وما عُدْتُ إِلَى خَيْمَتِي حَتَّى عَنُفَتِ الرِّياحُ ، واشْتَدَّ اضْطِرابُ ٱلْأَمْواجِ ، وظَلَّ ٱلْبَحْرُ مُضْطَرِبًا هائِجًا طُولَ ٱللَّيْلِ .

ولَمَّا أَقْبَلَ الصَّباحُ دُرْتُ بِٱلحاظِي فِي عُرْضِ الْبَحْرِ ؛ فَلَمْ أَجِدْ لِلسَّفِينَةِ أَثَرًا . فَعَلِمْتُ أَنَّ الْعاصِفَةَ أَغْرَقَتْها ؛ فَلَمْ أَحْزَنْ عَلَيْها ، لِأَنَّنِي لَمْ أَدَّخِرْ وُسْعًا فِي نَقْلِ كُلِّ ما أَحْتاجُ إِلَيْهِ مِنْها فِي ٱلْأَيَّامِ السَّابِقَةِ .

٩ — الْبَيْتُ الجَدِيدُ

لَمْ يَبْقَ عَلَيَّ — بَعْدَ ذٰلِكَ — إِلَّا أَنْ أُفَكِّرَ فِي وَسِيلَةٍ تَصُدُّ عَنِّي

غائِلَةَ الْمُعْتَدِينَ ، مِنْ بَنِي الْإِنْسانِ ، أَوْ مِنَ الْوُحُوشِ الْمُفْتَرِسَةِ . وظَلِلْتُ أُفَكِّرُ فِي بِناءِ الْبَيْتِ الَّذِي أُشَيِّدُهُ ، ولَمْ أَدْرِ : هَلْ أَحْفِرُ كَهْفاً أَمْ أُقِيمُ خَيْمَةً ؟ ثُمَّ قَرَّ رَأْيِي عَلَى أَنْ أَجْمَعَ بَيْنَهُما . ورَأَيْتُ الْمَكانَ الَّذِي حَلَلْتُهُ لا يَصْلُحُ لِإقامَتِي إِقامَةً دائِمَةً ؛ لِأَنَّهُ فِي أَرْضٍ مُنْخَفِضَةٍ سَبِخَةٍ[1] وَبَقائِي فِيهِ مُضِرٌّ بِصِحَّتِي ، وهُوَ — إِلَى ذٰلِكَ — لَيْسَ قَرِيباً مِنَ الْماءِ الْعَذْبِ . فَبَحَثْتُ عَنْ مَكانٍ آخَرَ أَكْثَرَ مُلاءَمَةً لِي . وَهَدانِي الْبَحْثُ إِلَى الْمَكانِ الَّذِي أَرَدْتُ ؛ فَقَدْ وُفِّقْتُ إِلَى سَهْلٍ صَغِيرٍ فِي سَفْحِ تَلٍّ مُرْتَفِعٍ صَخْرِيٍّ ، وبِجانِبِهِ ماءٌ عَذْبٌ ، وهُوَ مُشْرِفٌ عَلَى الْبَحْرِ . وكانَ فِي أَعْلَى ذٰلِكَ التَّلِّ صَخْرَةٌ ناتِئَةٌ[2] تَقِينِي وَهَجَ الشَّمْسِ ، وتَحْمِينِي مِنِ اعْتِداءِ الْمُغِيرِينَ ، مِنْ إِنْسٍ وحَيَوانٍ . وكانَتْ تِلْكَ الصَّخْرَةُ مَحْفُورَةً تُشْبِهُ الْكَهْفَ ؛ فَبَنَيْتُ خَيْمَتِي أَمامَها ، وَثَبَّتُّ أَوْتادَها؛ وشَعَرْتُ أَنَّنِي أَصْبَحْتُ بِمَأْمَنٍ مِنْ كُلِّ اعْتِداءٍ. ولَمْ أَجْعَلْ لِبَيْتِي باباً أَدْخُلُهُ ؛ بَلْ سُلَّماً أَتَسَلَّقُهُ . فَإِذا دَخَلْتُ الْبَيْتَ رَفَعْتُ السُّلَّمَ إِلَى داخِلِهِ ، ونِمْتُ — طُولَ لَيْلِي — ناعِمَ الْبالِ ، مُطْمَئِنًّا ، قَرِيرَ الْعَيْنِ . ثُمَّ نَقَلْتُ فِي هٰذا الْحِصْنِ كُلَّ ما لَدَيَّ مِنْ مَتاعٍ وَزادٍ وذَخائِرَ . ورَفَعْتُ

---

(١) ذات نز وملح . (٢) مرتفعة .

— فِي أَعْلَى الْمَسْكَنِ — سَقْفاً مُؤَلَّفاً مِنْ شِراعَيْنِ : أَحَدُهُما فَوْقَ الْآخَرِ ، وطَلَيْتُهُما بِالْقارِ[١] ، ثُمَّ وَجَّهْتُ هِمَّتِي إِلى حَفْرِ مَكانٍ فى تِلْكَ الصَّخْرَةِ لِيَكُونَ مَخْزَناً صَغِيراً فِي مَنْزِلِي .

وَظَلِلْتُ جادًّا فى عَمَلِي .

وإِنِّي لَكَذٰلِكَ إِذْ بَرَقَ الْبَرْقُ ورَعَدَ الرَّعْدُ ؛ فاشْتَدَّ جَزَعِي ، وخَشِيتُ أَنْ يَشْتَعِلَ الْبارُودُ ، فَيُدَمِّرَ كُلَّ شَيْءٍ فِي لَحْظَةٍ واحِدَةٍ .

وَثَمَّ[٢] وَجَّهْتُ هِمَّتِي كُلَّها إِلى تَأْمِينِي[٣] مِنْ هٰذا الْخَطَرِ ؛ فَصَنَعْتُ أَكْياساً كَثِيرَةً ، ووَضَعْتُ فِيها الْبارودَ ، وفَرَّقْتُها فِي أَنْحاءٍ مُتَباعِدَةٍ ؛

---

(١) الزفت . (٢) هناك . (٣) حفظى .

حتَّى إذا اشْتَعَلَتِ النَّارُ فِي أحَدِها لَمْ تَتَّصِلْ بِغَيْرِهِ .

وبِهٰذِهِ الطَّرِيقَةِ أَمِنْتُ أنْ يَشْتَعِلَ كلُّ ما عِنْدِي مِنَ الْبارُودِ مَرَّةً واحِدَةً . وقَدْ أنْجَزْتُ هٰذا الْعَمَلَ فى خِلالِ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْماً مُتَوالِيَةٍ ، ووَضَعْتُ الْبارُودَ فى مِائَةِ غِرارَةٍ[1] أخْفَيْتُها فى ثُقُوبِ الصَّخْرِ ، لِآمَنَ عَلَيْها الرُّطُوبَةَ . وكانَتْ ذَخِيرَتِي مِنَ الْبارُودِ لا يَقِلُّ وَزْنُها عَنْ مِائَةٍ وأرْبَعِينَ رِطْلًا . وقَدِ اشْتَدَّ حِرْصِي عَلَيْها ، ولَمْ يَرْتَحْ بالِي إلَّا بَعْدَ أنْ وَثِقْتُ من سلامَتِها ، وذَهَبَ خَوْفِي عَلَيْها مِنَ التَّلَفِ .

---

(١) زكيبة .

الفصل الخامس

الزِّلْزالُ

١ — جِداءُ الْجَزِيرَةِ

لَمْ أَكُفَّ عَنِ الْعَمَلِ فِي كُلِّ يَوْمٍ إِلَّا فِي فَتَرَاتٍ قَلِيلَةٍ، كُنْتُ أَخْرُجُ — فِي أَثْنائِها — مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ فِي كُلِّ يَوْمٍ، لِأُرَوِّحَ عَنْ نَفْسِي مِنْ عَناءِ الْعَمَلِ، أَوْ لِأَصْطادَ بَعْضَ الْحَيَوانِ لِغِذائِي، أَوْ لِأَرْتادَ أَنْحاءَ الْجَزِيرَةِ الْمَجْهُولَةِ.



وَقَدِ اسْتَرْعَى بَصَرِي

— فِي أَوَّلِ يَوْمٍ — ما بالْجَزِيرَةِ مِنْ جِدْيانٍ ، وابْتَهَجْتُ حِينَ رأَيْتُها . وَلٰكِنَّ فَرَحِي لَمْ يَطُلْ ؛ لِأَنَّنِي رَأَيْتُها مُتَوَحِّشَةً ماكِرَةً سَرِيعَةَ الْعَدْوِ ، لا أَكادُ أَقْتَرِبُ مِنْها حَتَّى تَفِرَّ هارِبَةً . وَقَدْ حاوَلْتُ أَنْ أَصْطادَ جَدْيًا مِنْ هٰذِهِ الْجِداءِ ، فَلَمْ أَسْتَطِعْ ؛ لِسُرْعَتِها وَخِفَّتِها . وَلٰكِنَّ الْيَأْسَ لَمْ يَغْلِبْنِي على أَمْرِي ، وَظَلِلْتُ أُراقِبُ حَرَكاتِها فِي رَوْحاتِها وَجَيْئاتِها ؛ فَرَأَيْتُها تَفْزَعُ مِنِّي هارِبَةً ، إِذا أَقْبَلْتُ عَلَيْها مِنَ الْوادِي وَكانَتْ فَوْقَ الصُّخُورِ . فَإِذا كُنْتُ أَنا فَوْقَ الصُّخُورِ وَكانَتْ هِيَ فِي الْوادِي تَرْعَى ، لَمْ تَتَحَرَّكْ ، وَلَمْ تَشْعُرْ بِمَقْدَمِي . فَعَلِمْتُ أَنَّ بَصَرَها مُنْصَرِفٌ إِلى أَسْفَلَ ، فَهِيَ لا تَرْفَعُهُ إِلى فَوْقُ ؛ وَثَمَّ لا تَرَى ما فَوْقَها . وَرَأَيْتُ أَنَّ خَيْرَ وَسِيلَةٍ تُمَكِّنُنِي من اقْتِناصِها[1] بِسُهُولَةٍ ، هِيَ أَنْ أُشْرِفَ عَلَيْها مِنْ فَوْقِ تِلْكَ الصُّخُورِ ، وَأُصَوِّبَ رَصاصِي إِلَيْها . وَقَدْ نَجَحَتْ هٰذِهِ الْحِيلَةُ ، وَأَصابَتْ أَوَّلُ طَلْقَةٍ مِنْ بُنْدُقِيَّتِي ماعِزًا فَقَتَلَتْها . وكانَ مَعَها جَدْيٌ صَغِيرٌ ؛ فَحَمَلْتُها على كَتِفِي ، وَتَبِعَنِي صَغِيرُها حَتَّى وَصَلْتُ إِلى مَسْكَنِي . وَبَذَلْتُ جُهْدِي فِي مُلاطَفَةِ الْجَدْيِ لَعَلَّهُ يَسْتَأْنِسُ بِي ؛ فَلَمْ أُفْلِحْ .

---

(١) صيدها .

وَقَدْ أَبَى أَنْ يَأْكُلَ ما قَدَّمْتُهُ لَهُ مِنَ ٱلطَّعامِ ؛ فاضْطُرِرْتُ إِلَى ذَبْحِهِ وأَكْلِهِ .

٢ — مُذَكِّراتٌ يَوْمِيَّةٌ

وهٰكَذا ٱسْتَطَعْتُ أَنْ أُنَظِّمَ حَياتِي — مُنْذُ وَطِئَتْ[1] قَدَمايَ تِلْكَ ٱلْجَزِيرَةَ النَّائِيَةَ ٱلْقَفْرَ[2] — لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي ٱلْيَوْمِ ٱلْمُتَمِّمِ لِلثَّلاثِينَ مِنْ « سِبْتَمْبِرَ » . وكانَ ٱلْوَقْتُ خَرِيفاً ، وحَرارَةُ الشَّمْسِ مُحْتَمَلَةً .



وكانتِ ٱلْجَزِيرَةُ ٱلَّتِي حَلَلْتُها واقِعةً عَلَى الدَّرَجَةِ التَّاسِعَةِ مِنْ شَمالِ خَطِّ الِاسْتِواءِ تَقْرِيباً .

وما مَرَّ عَلَيَّ عَشَرَةُ أَيَّامٍ حَتَّى خَشِيتُ أَنْ أَنْسَى تَوارِيخَ الْأَيَّامِ .

---

(١) داست . (٢) الخالية .

ولَمْ يَكُنْ عِنْدِي كُرَّاسَةٌ ولا وَرَقٌ ولا مِدادٌ ، فَلَمْ أَعْرِفْ كَيْفَ أُدَوِّنُ لِلأَيَّامِ تارِيخَها . وبَعْدَ افْتِكارٍ طَوِيلٍ أَقَمْتُ عَلَى شاطِئِ الْبَحْرِ جِذْعاً مُرَبَّعاً مِنَ الْخَشَبِ ، وحَفَرْتُ فيهِ ما يأْتِي :

« حَلَلْتُ هٰذِهِ الْجَزِيرَةَ فِى ٣٠ مِنْ سِبْتَمْبِرَ سنة ١٦٥٨ م . »

ثمَّ أَخَذْتُ عَلَى نَفْسِي أَن أَحْفِرَ خَطًّا صَغِيرًا فِي كُلِّ يَوْمٍ . فَإِذا انْتَهَى الأُسْبُوعُ حَفَرْتُ خَطًّا مُزْدَوِجاً . فَإِذا انْتَهَى الشَّهْرُ حَفَرْتُ مُرَبَّعاً صَغِيرًا . وقَدْ تَمَكَّنْتُ بِهٰذِهِ الْوَسِيلَةِ مِنْ تَعَرُّفِ أَيَّامِ الأُسْبُوعِ والشَّهْرِ والسَّنَةِ ، وأَمِنْتُ الْخَطأَ والنِّسْيانَ .

٣ — الأَصْدِقاءُ الأَوْفِياءُ

فاتَنِي أنْ أَذْكُرَ لِلقارِئِ أَنَّ السَّفِينَةَ — الَّتِي غَرِقَتْ — كانَ بِها قِطَّانِ وكَلْبٌ . وقَدْ كَتَبَ عَلَيْها الْقَدَرُ أَنْ تَكُونَ قِصَّتُها مُمْتَزِجَةً بِقِصَّتِي . فَقَدْ أَحْضَرْتُ الْقِطَّيْنِ مَعِي ، وقَفَزَ الْكَلْبُ مِنَ السَّفِينَةِ إِلَى الْبَحْرِ حَتَّى وَصَلَ إِلى الشَّاطِئِ سِباحَةً ، ولَحِقَ بِي فِي الْيَوْمِ التَّالِي .

وقَدْ ظَلَّ الْكَلْبُ الْوَفِيُّ الأَمِينُ يَخْدُمُنِي عِدَّةَ سَنَواتٍ .

وكان دَقِيقَ الْمُلاحَظَةِ ، حادَّ الذَّكاءِ ، أَشْبَهَ بِالْخادِمِ الذَّكِيِّ الْحاذِقِ[١] وكانَ — فى الْحَقِيقَةِ — خَيْرَ صَدِيقٍ وخادِمٍ لِى . وقَدْ أُعْجِبْتُ بذَكائِهِ وفِطْنَتِهِ ودِقَّةِ مُلاحَظَتِهِ ، فقَدْ رأَيْتُهُ :

فِى كُلِّ شَىْءٍ يُشْبِهُ الْـ إِنْسانَ إِلَّا فِى الْكَلامْ

٤ — أَثاثُ الْبَيْتِ

ذَكَرْتُ لِلْقارِئِ أَنِّنِى نَقَلْتُ ذَخائِرِى وَزادِى إِلى بَيْتِىَ الْجَدِيدِ . وَقَدْ وضَعْتُها — أَوَّلَ الْأَمْرِ — عَلَى غَيْرِ تَرْتِيبٍ ؛ فَشَغَلَتْ مِنْ بَيْتِى فَراغاً كَبِيراً ، حَتَّى صَعُبَ عَلَىَّ أَنْ أَجِدَ فيه مُتَّسَعاً لِلْحَرَكَةِ . فَعَمَدْتُ إِلى حَفْرِ الْمَغارَةِ لِتَوْسِيعِها . وقَدْ والَيْتُ الْعَمَلَ — فِى ذٰلِكَ — أَيَّاماً حَتَّى وُفِّقْتُ إِلى غايَتِى . ثُمَّ عَنَّ[٢] لِى أَنْ أَصْنَعَ أَهَمَّ ما أَحْتاجُ إِلَيْهِ مِنْ أَثاثِ الدَّارِ ؛ فَبَدَأْتُ بِصُنْعِ كُرْسِىٍّ ومائِدَةٍ . وقدْ أَكْسَبَنِىَ الْعَمَلُ الْمُتَواصِلُ مَرانَةً نادِرَةً سَهَّلَتْ عَلَىَّ صُنْعَ كُلِّ ما يُعْوِزُنِى مِنَ الضَّرُورِيَّاتِ .

وقَدِ اسْتَطَعْتُ أَنْ أَصْنَعَ كَثِيراً مِنَ الْأَثاثِ ، دُونَ أَنْ أَسْتَعِينَ

---

(١) الماهر .   (٢) خطر .

عَلَى ذلِكَ بِغَيْرِ قَدُومٍ وَمِسْحَجٍ[١] . فإذا عَنَّ لِى أنْ أصْنَعَ لَوْحاً ، قطعتُ الشَّجَرَةَ بِالْقَدُومِ ، وطَرَحْتُ جِذْعَها عَلَى الأَرْضِ ، ثُمَّ هَذَّبْتُهُ مِنْ جانِبَيْهِ حَتَّى يَصِلَ سَمْكُهُ إلى الحَدِّ الَّذِى أُرِيدُ . فإذا تَمَّ لِى ذلكَ صَقَلْتُهُ[٢] بِمِسْحَجِى .

وكانَ الْقَدُومُ والْمِسْحاجُ خَيْرَ مِعْوانٍ[٣] لِى عَلَى إنْجازِ كَثِيرٍ مِنْ أثاثِ الْبَيْتِ . ولَمْ يَكُنْ فِى وُسْعِى أنْ أصْنَعَ أَكْثَرَ مِنْ لَوْحٍ واحِدٍ مِنْ كلِّ شَجَرَةٍ كامِلَةٍ . عَلَى أنَّنِى لَجَأْتُ إلَى الصَّبْرِ ، ولَمْ يَكُنْ لِى مَنْدُوحَةٌ[٤] عَنْهُ . وقَدْ بَدَأْتُ بِعَمَلِ كُرْسِيٍّ وَمائِدَةٍ ، ثُمَّ صَنَعْتُ أَلْواحاً كثيرَةً ، ثُمَّ ثَبَّتُّ فِى الصَّخْرِ مَسامِيرَ لَوْلَبِيَّةً[٥] ، لِأُعَلِّقَ عَلَيْها بَنادِقِى وَثِيابِى . وبَذَلْتُ جُهْدِى فى إنْجازِ كلِّ ما أحْتاجُ إلَيْهِ مِنَ الضَّرُورِيَّاتِ .

٥ — شَحْمُ الجِداءِ

وكانَ يُعْوِزُنِى — وَما أَكْثَرَ ما كانَ يُعْوِزُنِى حِينَئِذٍ — الشَّمْعُ . وكانَ فِقْدانُهُ يَضْطَرُّنِى إلَى مُلازَمَةِ فِراشِى كلَّما أقْبَلَ اللَّيْلُ .

---

(١) آلة يصقل بها الخشب . (٢) أنعمته (٣) مساعد .
(٤) بد وسعة . (٥) ملواة .

وقدْ فكَّرْتُ فى ذلِكَ طَوِيلًا حَتَّى اهْتَدَيْتُ إلى حَلٍّ هٰذهِ الْمُشْكِلَةِ ؛ فَحَرَصْتُ عَلَى شَحْمِ الْجِداءِ الَّتى كُنْتُ أذْبَحُها ، ثُمَّ جَفَّفْتُهُ فى أشِعَّةِ الشَّمْسِ. ووَضَعتُ فى وَسَطِ كُلِّ قِطْعَةٍ مِنَ الشَّحْمِ فَتِيلًا أُخْرَجْتُهُ مِنَ الْحِبالِ الَّتى عِنْدِى ؛ حَتَّى إذا تَمَّ صُنْعُ الشَّمَعِ ظَفِرْتُ بِالضَّوْءِ لَيْلًا ، بَعْدَ أنْ كُنْتُ أقْضِى لَيالِىَّ فى ظَلامٍ حالِكٍ .

٦ — سَنابِلُ الشَّعِيرِ

وَفِى ذاتِ يَوْمٍ كُنتُ دائِبًا[١] على الْعَمَلِ ؛ فاسْتَرْعَى انْتِباهِى كِيسُ الْحُبُوبِ الَّذِى أحْضَرْتُهُ مَعِى مِنَ السَّفِينَةِ الْمُحَطَّمَةِ ، فَرَأَيْتُ الْفَأْرَةَ قَدِ الْتَهَمَتْهُ حَتَّى لَمْ تَكَدْ تُبْقِى مِنْهُ إلَّا الْقُشُورَ . فَأَفْرَغْتُ الْكِيسَ مِنْها عِنْدَ سَفْحِ الصَّخْرَةِ الْقَرِيبَةِ مِنْ كَهْفِى ، لِأنْتَفِعَ بِالْكِيسِ فى قَضاءِ مَآرِبَ[٢] أُخَرَ . وبعْدَ قَلِيلٍ ، هَطَلَتِ الْأَمْطارُ ، وَرَوَّتِ الْأَرْضَ ، ثُمَّ نَسِيتُ كُلَّ ما حَدَثَ بَعْدَ ذٰلِكَ .

وما مَرَّ عَلَىَّ شَهْرٌ واحِدٌ تَقْرِيبًا حَتَّى أدْهَشَنِى ما رَأَيْتُهُ — عِنْدَ سَفْحِ الصَّخْرَةِ — مِنَ السُّوقِ النَّامِيَةِ فى الْأَرْضِ .

(١) مجتهداً .   (٢) إنجاز حاجات .

وَقَدْ كُنْتُ أَحْسَبُها – أَوَّلَ الْأَمْرِ – نَباتاتٍ مَجْهولَةً . ثُمَّ ظَهَرَ لى خَطأُ هٰذا الظَّنِّ – بَعْدَ زَمَنٍ قَليلٍ – حينَ رَأَيتُ اُثْنَتَىْ عَشْرَةَ سُنْبُلَةً مِنَ الشَّعيرِ الْأَخْضَرِ .

وَقَدِاُشْتَدَّتْ دَهْشَتِى –حينَئِذٍ– ولَمْ أُقَصِّرْ فى تَعَهُّدِها بِالْعِنايَةِ ، وحَصْدِها فى مَوْسِمِ الْحَصادِ ، وهُوَ آخِرُ شَهْرِ « يُنْيَـــةَ » .

وقَدْ جَنَيْتُها بِعِنايَةٍ نادِرَةٍ ؛ فَلَمْ أُهْمِلْ مِنْها حَبَّةً واحِدَةً ، ثُمَّ بَذَرْتُها – بَعْدَ ذٰلِكَ – فى مَوْسِمِ الْبَذْرِ . وَلاحَ لِى أَمَلٌ كَبيرٌ فى الْحُصُولِ عَلَى الْخُبْزِ بَعْدَ زَمَنٍ قَليلٍ .

وَما مَرَّتْ عَلَىَّ أَرْبَعُ سَنَواتٍ حَتَّى أَصْبَحَ عِنْدِى – مِنَ الشَّعيرِ – ما يَكْفِى لِغِذائى وزَرْعِ حَقْلِىَ الْجَديدِ .

٧ — زِلْزالُ الْجَزِيرَةِ

وَما أنْسَ لا أنْسَ الْيَوْمَ السَّابِعَ مِنْ « أبْرِيلَ » عامَ سِتِّينَ وسِتِّمِائَةٍ وَألْفٍ : فَقَدْ كانَ يَوْماً هائِلَ النَّبإِ ، مُرَوِّعَ الْخَبَرِ ، وقَدْ أيْقَنْتُ فى ذٰلِكَ الْيَوْمِ أنَّ آخِرَتِى دَنَتْ ، وأنَّ مَصْرَعِى وَشِيكٌ[1]. ورَأيتُ كلَّ ما أتْمَمْتُهُ — مِنْ عَمَلٍ — يَكادُ يَنْهارُ[2] أمامِى فِى لَحْظَةٍ واحدةٍ .

كُنْتُ فى ذٰلِكَ الْيَوْمِ مُنْهَمِكًا[3] فى أعْمالى ، داخِلَ خَيْمَتِى . وإنِّى لَكَذٰلِكَ إذْ وَجَدْتُ الْأرْضَ تَهْبِطُ وتَصْعَدُ . وشَعَرْتُ باضْطِرابِ الصُّخُورِ الَّتى تَكْتَنِفُنِى[4] ، وسَمِعْتُ فَرْقَعَةً وجَلْجَلَةً شَدِيدَتَيْنِ ، ولَمْ أعْرِفْ مَصْدَرَ هٰذِهِ الكَوارِثِ . وتَمَلَّكَنِى الذُّعْرُ ، وخَشِيتُ أنْ أُدْفَنَ حَيًّا ؛ فَصَعِدْتُ السُّلَّمَ ، وخَرَجْتُ مِنْ خَيْمَتِى مُسْرِعًا ، وَأنا لا أكادُ أُصَدِّقُ بِالنَّجاةِ ؛ فَرَأيْتُ أَرْضَ الْجَزِيرَةِ تَهْتَزُّ اهْتِزازًا عَنِيفًا ، فَعَرَفْتُ أنَّهُ الزِّلْزالُ .

---

(١) هلاكى مسرع إلى . (٢) يسقط . (٣) جاداً . (٤) تحيط بى .

وقَدِ اهْتَزَّتِ الأَرْضُ تَحْتَ قَدَمَيَّ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مُتَعاقِبَةً[١] ، وكانَ بَيْنَ كُلِّ مَرَّةٍ مِنْها ثَمانِي دَقائِقَ .

وكانَتْ تِلْكَ الْهِزّاتُ قَوِيَّةً عَنيفَةً إلى حَدٍّ أنْ هَوَتْ إحْدَى الصُّخُورِ الْقَرِيبَةِ مِنِّي ، ولَمْ أَكُنْ أَبْعُدُ عَنْها أكْثَرَ مِنْ مِتْرٍ ونِصْفِ مِتْرٍ ، وسَمِعْتُ لِسُقُوطِها صَوْتاً هُوَ أَشْبَهُ شَيْءٍ بالرَّعْدِ . وثَمَّةَ[٢] عَقَدَ الْخَوْفُ لِسانِي ، وكادَ يَجْمُدُ الدَّمُ فِي عُرُوقِي ، مِنْ شِدَّةِ الْفَزَعِ .

وكانَ مِنْ حُسْنِ حَظِّي أَنَّ الأَرْضَ هدَأَتْ ، وسَكَنَ اضْطِرابُها بَعْدَ تِلْكَ الْهِزّاتِ الثَّلاثِ . فاطْمَأَنَّتْ نَفْسِي قَلِيلًا ، ولٰكِنَّنِي لَمْ أَجْرُؤْ عَلَى دُخُولِ خَيْمَتِي ؛ فَجَلَسْتُ عَلَى الأَرْضِ ، وأَنا لا أَعْرِفُ كَيْفَ أَصْنَعُ .

٨ — بَعْدَ الزِّلْزالِ

واكْفَهَرَّتِ السَّماءُ[٣] ، وتَلَبَّدَتْ فَجْأَةً بِالْغُيُومِ الْقاتِمَةِ . وهَبَّتِ الرِّيحُ عاصِفَةً هَوْجاءَ ؛ واضْطَرَبَ الْبَحْرُ ، واصْطَفَقَتْ أَمْواجُهُ اصْطِفاقاً

(١) متوالية . (٢) هنالك (٣) اسودت .

شَدِيدًا ، وكانَتْ تَصِلُ فِى ارْتِفاعِها إلى مِثْلِ ارْتِفاعِ الْجِبالِ . وَظَلَّتِ الْعاصِفَةُ ثائِرَةً مُفَزِّعَةً ثَلاثَ ساعاتٍ ، ثُمَّ أَعْقَبَها السُّكُونُ ، وَهَطَلَتِ الْأَمْطارُ الْغَزِيرَةُ ؛ فَحَسِبْتُها سُيُولًا تَهْمِى مِنَ السُّحُبِ الْمُتَكاثِفَةِ . وَظَلَّتِ السَّماءُ تُمْطِرُنا طُولَ اللَّيْلِ وَطَرَفًا مِنْ نَهارِ الْيَوْمِ التَّالِى . وَكانَ شُغْلِىَ الشَّاغِلُ — حِينَئِذٍ — التَّفْكِيرَ فى تَغْيِيرِ هٰذا الْمَنْزِلِ ، بَعْدَ حُدُوثِ الزِّلْزالِ . فَلَمْ يَكُنْ فِى وُسْعِى أَنْ أَطْمَئِنَّ إلى الْبَقاءِ ، بَعْدَ أَنْ كِدْتُ أُدْفَنُ فِيهِ حَيًّا . وَقُلْتُ لِنَفْسِى : « ما دامَتِ الْجَزِيرَةُ عُرْضَةً لِأَخْطارِ الزِّلْزالِ ، فَلَيْسَ مِنَ الْحَزْمِ[1] أَنْ أَتَّخِذَ هٰذِهِ الْمَغارَةَ مَسْكَنًا لِى ، وَما أَجْدَرَنِى أَنْ أَتَخَيَّرَ مَكانًا صالِحًا فِى الْعَراءِ[2] ، لِأَبْنِىَ فِيهِ مَسْكَنِى ، بَعْدَ أَنْ أُسَوِّرَهُ بِسِياجٍ أَمِينٍ[3] . »

وَقَدْ تَأَلَّمْتُ لِمُغادَرَةِ هٰذا الْكَهْفِ الَّذِى لَمْ آلُ جُهْدًا[4] فِى حَفْرِهِ وَإِصْلاحِهِ وَتَنْظِيمِ أَمْتِعَتِى فِيهِ ، حَتَّى أَصْبَحَ بَيْتًا وَحِصْنًا مَنِيعًا[5] يَقِينِى غاراتِ الْأَعْداءِ .

---

(١) الحكمة . (٢) الفضاء . (٣) سور متين . (٤) لم أبق قوة إلا بذلتها
(٥) قوياً .

٩ — أَثَرُ الزِّلْزالِ

وَفِي صَباحِ أَوَّلِ « مايُو » وَقَفْتُ أَتَأَمَّلُ ٱلْبَحْرَ ، وَأُجِيلُ لِحاظِيَ فِي أَرْجائِهِ[1] . فَرَأَيْتُ بَقايا مُتَناثِرَةً مِنْ حُطامِ ٱلسَّفِينَةِ وَمِنْ أَلْواحِها ، قَذَفَها ٱلْمَدُّ إِلى الشَّاطِئِ . فَصَبَرْتُ عَلَيْها حَتَّى يَنْحَسِرَ[2] عَنْها ٱلْماءُ ، وَقْتَ ٱلْجَزْرِ[3] . وَقَدْ دَهِشْتُ أَوَّلَ ٱلْأَمْرِ مِمَّا رَأَيْتُ . وَعَلِمْتُ أَنَّ هٰذا مِنْ أَثَرِ ٱلزِّلْزالِ ٱلَّذِي حَطَّمَ ٱلسَّفِينَةَ تَحْطِيمًا ، ثُمَّ قَذَفَتِ ٱلْأَمْواجُ بِأَلْواحِها إِلى ٱلشَّاطِئِ . وَرَأَيْتُنِي جَدِيرًا بِانْتِهازِ هٰذِهِ ٱلْفُرْصَةِ قَبْلَ أَنْ أَشْغَلَ نَفْسِي بِبِناءِ ٱلْمَسْكَنِ ٱلْجَدِيدِ . وَعَمِلْتُ عَلَى تَجْزِئَةِ ما بَقِيَ مِنَ ٱلسَّفِينَةِ إِلى قِطَعٍ ، وَأَنا عَلَى ثِقَةٍ مِنْ حاجَتِي إِلى هٰذِهِ ٱلْبَقايا ٱلْمُحَطَّمَةِ . وَقَدْ واصَلْتُ ٱلْعَمَلَ فِي تَحْقِيقِ هٰذا ٱلْعَزْمِ حَتَّى مُنْتَصَفِ شَهْرِ « يُونْيَةَ » ، وَظَفِرْتُ بِكَثِيرٍ مِنَ ٱلْأَلْواحِ ، كَما ظَفِرْتُ بِأَكْثَرَ مِنْ مِائَتَيْ رِطْلٍ مِنَ ٱلْحَدِيدِ . وَهٰكَذا أَصْبَحَ فِي مَقْدُورِي أَنْ أَبْنِيَ لِي زَوْرَقًا كامِلَ ٱلْمُعِدَّاتِ . وَصَنَعْتُ — بَعْدَ ذٰلِكَ — شَبَكَةً أَصْطادُ بِها ٱلسَّمَكَ . وَكُنْتُ أُجَفِّفُ ما يَزِيدُ عَلَى حاجَتِي مِنْهُ فِي ضَوْءِ الشَّمْسِ وَحَرارَتِها ، ثُمَّ آكُلُهُ فِي أَوْقاتٍ أُخْرَى .

---

(١) أدير بصرى فى أنحائه . (٢) يرتد . (٣) ارتداد الماء .

١٠ — بَيْنَ بَراثِنِ الْحُمَّى

وَفِى الْيَوْمِ السَّادِسَ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ « يُنْيَةَ » رَأَيْتُ سُلَحْفاةً كَبِيرَةً تَدِبُّ عَلَى الْأَرْضِ ، وكانَتْ هٰذِهِ أَوَّلَ سُلَحْفاةٍ أَراها فى الْجَزِيرَةِ. عَلَى أَنَّنِي رَأَيْتُ — فِى الْأَيَّامِ التَّالِيَةِ — أَسْرابًا[1] كَثِيرَةً مِنَ السَّلاحِفِ فى النَّاحِيَةِ الْأُخْرَى مِنْها .

وَذَبَحْتُ تِلْكَ السُّلَحْفاةَ ؛ فَرَأَيْتُ فِيها سِتِّينَ بَيْضَةً . وكانَ لَحْمُها — حِينَئِذٍ — شَهِيًّا لَذِيذًا ؛ حَتَّى خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّهُ أَشْهَى طَعامٍ تَذَوَّقْتُهُ فى حَياتِى .

وفِى الْيَوْمِ الثَّامِنَ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ « يُنْيَةَ » هَطَلَتِ الْأَمْطارُ غَزِيرَةً ، وبَرَدَ الْجَوُّ فَجْأَةً ، فَأَصابَتْنِيَ الْحُمَّى عَشَرَةَ أَيّامٍ كامِلَةٍ . وكانت حَرارَتِى تَخْتَلِفُ بَيْنَ ارْتِفاعٍ وانْخِفاضٍ ، وقَدِ اشْتَدَّ بِيَ الظَّمَأُ ، وأَعْجَزَنِيَ الضَّعْفُ عَنِ السَّيْرِ إلى مَكانِ الْماءِ لِأَرْوِيَ ظَمَئِي .

وما تَماثَلْتُ[2] ، حَتَّى انْصَرَفَ هَمِّى إلى مَلْءِ زُجاجَةٍ كَبِيرَةٍ ماءً ، ووَضَعْتُها عَلَى الْمائِدَةِ الْقَرِيبَةِ مِنْ سرِيرِى .

---

(١) جماعات . (٢) دنوت من الشفاء .



ولَقَدْ نَهَكَتِ الْحُمَّى قُوَايَ[1] ؛ فَبَقِيتُ عَشَرَةَ أَيَّامٍ أُخْرَى وأنا عاجِزٌ عَنْ أداءِ أيِّ عَمَلٍ . فَقَضَيْتُ دَوْرَ النَّقَهِ[2] فِي رَاحَةٍ تامَّةٍ ، تَتَخَلَّلُها نُزُهاتٌ قَصِيرَةٌ ، حتَّى اسْتَرْدَدْتُ صِحَّتِي كامِلَةً فِي الْيَوْمِ الْخامِسَ عَشَرَ مِنْ « يُلْيَةَ » .

١١ — ارْتِيادُ الْجَزِيرَةِ

ورَأَيْتُنِي جَدِيرًا أَنْ أَرْتادَ الْجَزِيرَةَ ، وأَتَعَرَّفَ كُلَّ ما فِيها . فَذَهَبْتُ إِلَى الْخَلِيجِ الصَّغِيرِ — وهُوَ أَوَّلُ مَكانٍ حَلَلْتُهُ فِي هٰذِهِ الْجَزِيرَةِ — وسِرْتُ عَلَى شاطِئِ الْغَدِيرِ الَّذِي يَصُبُّ فِيهِ ، وقَطَعْتُ نَحْوَ مِيلَيْنِ فِي أَرْضٍ مُرْتَفِعَةٍ . وقَدْ أُعْجِبْتُ بِالْمُرُوجِ الْخُضْرِ الْجَمِيلَةِ الْمُنْبَسِطَةِ الَّتِي يَخْتَرِقُها الْغَدِيرُ . ورَأَيْتُ فِي الْمُرُوجِ الْمُرْتَفِعَةِ كَثِيرًا مِنَ التَّبْغِ الْأَخْضَرِ نامِيًا عَلَى سُوقٍ مُرْتَفِعَةٍ ، كَما رَأَيْتُ عِيدانَ قَصَبِ السُّكَّرِ عَلَى غَيْرِ ما يُرامُ ، فَقَدْ أُهْمِلَتْ ولَمْ يَتَعَهَّدْها أَحَدٌ بِعِنايَتِهِ . وفِي الْيَوْمِ التَّالِي — أَيْ فِي السَّادِسَ عَشَرَ مِن ذٰلِكَ الشَّهْرِ —

(١) أضعفتها . (٢) مدة استكمال الصحة .

سِرتُ فى الطَّرِيقِ الَّتى قطعْتُها بِالْأَمْسِ ، وتَوغَّلْتُ(١) فى الْمُرُوجِ . فَرأَيتُ وَراءها كَثِيرًا مِن أشْجارِ الْفاكِهَةِ وغيرِها ، ورأَيتُ — مِنَ الشَّمَّامِ والعِنَبِ النَّاضِجِ الشَّهِيِّ — ما أدْهَشَنى وَأفعمَ قَلْبى سُرُورًا . فَأَكلتُ مِن الفاكِهَةِ فِى غَيْرِ إِسْرَافٍ حتّى لا تُسْلِمَنِىَ التُّخَمَةُ إلى الْمَرَضِ . ثُمَّ عَنَّ لى أَنْ أُجَفِّفَ العِنَبَ حَتى يُصْبِحَ زَبِيبًا . ومَضَى النَّهارُ كلُّهُ وأَنا جادٌّ فى هٰـذا الْعَملِ . ولَمْ أَشَأْ أنْ أَعُودَ إلى مَسْـكَنى قَبْلَ أَنْ يُقْبِلَ اللَّيْلُ لِبُعْدِ الشُّقَّةِ(٢) فَتَخَيَّرْتُ لِنَوْمِى شَجَرَةً كَثِيفَةَ الأَغْصانِ ، ونِمْتُ بَيْنَ أَغْصانِها ، كَما نِمْتُ أَوَّلَ لَيْلَةٍ حَلَلْتُ فِيها هٰذه الْجَزِيرَةَ . وَما زِلْتُ نائِمًا قَرِيرَ العَيْنِ(٣) هادِئَ البالِ حَتّى أقبلَ الصَّباحُ . فاسْتَيْقَظْتُ، ثُمَّ واصَلْتُ السَّيْرَ نَحْوَ أَرْبَعَةِ أَمْيـالٍ ، حتَّى بَلَغْتُ غابةً مُزْدَهِرَةً ، تَلُوحُ لِعَيْنِ مَن يَرَاها مِنْ بَعيدٍ كأنَّها حَدِيقَةٌ .

وقَدِ اسْتَرْعَى بَصَرِى ما رَأَيْتُهُ مِنْ شَجَرِ الْبُرْتُقالِ واللَّيْمُونِ وَما إِلَى ذٰلِكَ مِنَ الْفاكِهَةِ النَّاضِجَةِ الشَّهِيَّةِ .

ورأَيْتُ مِنْ أَصالَةِ الرَّأْى(٤) أَنْ أُعِدَّ مِنْ هٰـذِهِ الْخَيْراتِ الْعَمِيمَةِ

(١) قطعت مسافة بعيدة . (٢) بعد المسافة . (٣) مسروراً (٤) جودته

زادًا أختزِنُهُ لِفصلِ الشّتاء القريبِ. فَجَنَيْتُ كثيرًا مِنَ العِنَبِ، وعَلّقتُهُ عَلَى غُصُونِ الشَّجرِ، لِيَجِفَّ فى الشَّمسِ. وأخذتُ مِنَ البُرتُقالِ بِمِقدارِ ما أستَطِيعُ حَمْلَهُ. وَسِرتُ فى طَرِيقِى عائدًا إلى مَسكَنِى، وَأنا شَديدُ الإعجابِ بِجَمالِ هذا الوادِى الخَصيبِ، وَاعتدالِ جَوِّهِ، وَحُسْنِ مَوقِعِهِ الأَمينِ. وعَرَفتُ أنَّ المَكانَ — الَّذى تَخَيَّرْتُهُ لِسُكناىَ — هُوَ أَرْدَأُ بُقعَةٍ فى تلكَ الجَزيرَةِ. وَلٰكِنَّنِى لَمْ أشَأْ أنْ أَبْرَحَ المَكانَ، لِقُرْبِهِ مِنَ البَحْرِ. وَقَدْ كُنتُ أَتَوَقَّعُ أَنْ تَمُرَّ بِى سَفِينَةٌ، أَوْ يَفِدَ عَلَىَّ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ فَيُنقِذَنِى مِنْ تِلكَ العُزلَةِ.

عَلَى أننى — لِشِدَّةِ إعجابِى بِهذِهِ البُقعَةِ الجَميلَةِ — لَمْ أشَأْ أَنْ أَبْتَعِدَ عَنها. فَأَنشَأتُ فِيها عُشًّا آوِى إلَيهِ وَسَطَ فِناء[1] مُحاطٍ بِسِياجٍ[2] طَبِيعِىٍّ مُزدَوجٍ مِنَ الأَشجارِ. وَكُنتُ أَمضِى فى هذا الحِصنِ لَيلَتَيْنِ أَوْ ثَلاثًا مُتَوالِيَةً. وَقَدْ صَنَعتُ سُلَّمًا شَبِيهًا بِالسُّلَّمِ الَّذى صَنَعتُهُ فى المَنزِلِ الأَوَّلِ. وَهٰكَذا أَصْبَحَ لِى مَنزِلانِ مُتَباعِدانِ، آوِى إلَيهِما فى أَىِّ وَقتٍ أَشاءُ. وظَلِلتُ كذلِكَ إلى أَوَّلِ شَهرِ «أُغُسطُسَ».

---

(١) مكان فضاء واسع. (٢) سور.



١٢ – فَصْلُ الأَمْطارِ

وَفِي اليَوْمِ الرَّابِعَ عَشَرَ مِنْ « أُغُسْطُسَ » بَدَأَ المَطَرُ يَنْهَمِرُ بِشِدَّةٍ إِلى أَن حَلَّ مُنْتَصَفُ « أُكْتُوبَرَ » ، فَبَدَأَتْ تَخِفُّ وَطْأَةُ المَطَرِ .

وكُنْتُ — لِحُسْنِ حَظِّي — قَدْ نَقَلْتُ إلى مَسْكَنِي الأوَّلِ كلَّ ما جَفَّفْتُهُ مِنَ الْعِنَبِ قُبَيْلَ حُلُولِ فصلِ الأمْطارِ . فَلَمَّا اشْتَدَّ انْهمارُ الْمَطرِ وَتَعذَّرَ عَلَيَّ الْخُرُوجُ ، وَجَدْتُ ما يَكْفِينِي مِنَ الزَّادِ . وكانَ الْمَطَرُ يَضْطَرُّنِي فِي بَعْضِ الأحْيانِ ، إِلَى الِانْزِواءِ فِي مَغارَتِي عِدَّةَ أَيَّامٍ .

وَبَعْدَ قَلِيلٍ شَعَرْتُ أَنَّ زادِي يُوشِكُ أَنْ يَنْتهِيَ ؛ فاضْطُرِرْتُ إلى الْخُرُوجِ مِنْ بَيْتِي مَرَّتَيْنِ . وَقَدِ اصْطَدْتُ جَدْيًا وَسُلَحْفاةً كَبِيرَةً ، وكانَ لَحْمُهُما شَهِيًّا .

وكانَ فَطُورِي عُنْقودًا مِنَ الْعِنَبِ ، وَغَدائِي شِواءَةً مِنْ جَدْيٍ أَوْ سُلَحْفاةٍ ، وَعَشائِي بَيْضَتَيْنِ أَوْ ثَلاثًا

وَلَمَّا جاءَ الْيَوْمُ الْمُتَمِّمُ لِلثَّلاثِينَ مِنْ « سِبْتَمْبِرَ » ، انْتابَتْنِي ذِكْرَياتٌ مُؤْلِمَةٌ . وقَدْ ساوَرَتْنِي[1] حِينَ مَرَّ بِخاطِرِي أَنَّنِي حَلَلْتُ هٰذِهِ الْجَزِيرَةَ فِي مِثْلِ هٰذا الْيَوْمِ مِنَ الْعامِ الْماضِي ، وقَدْ مَرَّ عَلَيَّ عامٌ بِأَكْمَلِهِ فِي هٰذا الْمَنْفَى . ولَقَدْ كُنْتُ شَدِيدَ الْيَقَظَةِ فِي مُراقَبَةِ الْفُصُولِ وحُسْبانِ أَيّامِ السَّنَةِ ؛ حتَّى لا أُفاجَأَ بِالْأَمْطارِ . وقدْ أَكْسَبَتْنِي الْمَرانَةُ خِبْرَةً نادِرَةً بِالزِّراعَةِ ، ونَجَحَتْ أعْمالِي نَجاحًا باهِرًا .

(١) خطرت لي .

١٣ — الْبَبَّغاء والْجَدْىُ

وكُنْتُ دَائِباً عَلَى الْعَمَلِ فِى كُلِّ يَوْمٍ . ولَمْ أُقَصِّرْ فى تَوفِيرِ الزَّادِ[1] عِنْدِى قَبْلَ حُلُولِ الأَمْطارِ ؛ حَتَّى لا يُزْعِجَنِى نَقْصُ الزَّادِ إذا حَبَسَنِىَ الْمَطَرُ عَنِ الْخُرُوجِ مِنَ الْبَيْتِ .

ورَأَيْتُنى فى حاجَةٍ إِلَى سِلالٍ أَضَعُ فِيهـا الْفا كِهَةَ والطَّعامَ . وقَدْ وُفِّقْتُ إلى صُنْعِها بَعْدَ عَناءٍ طَوِيلٍ . وكُنْتُ أُكْثِرُ مِنَ التَّجْوالِ فى تِلْكَ الْجَزِيرَةِ . وقَدِ اسْتَرْعَى بَصَرِى — ذاتَ يَوْمٍ — أَرْضٌ فَسِيحَةٌ ، وكانَ الْيَوْمُ صَحْوًا . وقَدْ رأَيْتُها مُرْتَفِعَةً ، تَمْتَدُّ مِنَ الْغَرْبِ إلى الْجَنُوبِ الْغَرْبِىِّ . وهِىَ تَبْعُدُ عَنْ جَزِيرَتِى نَحْوَ خَمْسةَ عشَرَ مِيلا ، ولَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ شَيْئاً عَنْها . وقَدْ هَدانِىَ التَّفْكِيرُ الطَّوِيلُ إلى أنَّ هٰذِهِ الأَرْضَ الْبَعِيدَةَ تَمْتَدُّ إلى بِلادِ الْبَرازِيلِ . وشَهِدْتُ — فِى أَثْناء تَجْوالِى فِى تِلْكَ السُّهُولِ الْخُضْرِ الْمُزْدَهِرَةِ الْجَمِيلَةِ ، ذاتِ الأَشْجارِ الْباسِقَةِ[2] الْكَثِيفَةِ[3] — جَمْهَرَةً مِنَ الْبَبَّغاواتِ .

وقَدْ وُفِّقْتُ إلى اقْتِناصِ بَبَّغاء صَغِيرَةٍ ، ضَرَبْتُها بِعَصاىَ ، ثُمَّ

(١) جمعه . (٢) المرتفعة . (٣) الغليظة .

أَدْفَأْتُها بَيْنَ ثِيابِى ، حَتَّى عادَتْ إلى صَوابِها . وعُدْتُ بِها إلى مَسْكَنِى ، فَرَأَيْتُ كَلْبِى قدِ اصْطادَ جَدْيًا صَغِيرًا ؛ فَأَسْرَعْتُ لِإنقاذِ الْجَدْىِ مِنْ بَيْنِ مَخالِبِهِ .

وقدْ عُنِيتُ بتَرْبِيَةِ الْبَبَّغاء والْجَدْىِ وتَأْنِيسِهِما[1] . فَرَبَطْتُ الْجَدْىَ إلى وَتِدٍ ، وصَنَعْتُ لِلْبَبَّغاءِ قَفَصًا . ولَمْ يَمُرَّ عَلَيْهِما زَمَنٌ قَليلٌ ، حتَّى أَنِسَا بِى وأَرْتاحا إلى صُحْبَتِى . وكانَ الْجَدْىُ يَتْبَعُنِى حَيْثُما سِرْتُ ، ولا يَكادُ يُطِيقُ فِراقِى .

وهٰكذا سُعِدْتُ — فِى هٰذِهِ الْجَزِيرَةِ النَّائِيَةِ — بِصُحْبَةِ هٰذَيْنِ الرَّفِيقَيْنِ الْجَدِيدَيْنِ ، كما سُعِدْتُ بِصُحْبَةِ كَلْبِى وقِطَّتِى مِنْ قَبْلُ .

---

(١) جعلتهما يأنسان بى ولا يهربان منى .

الفصل السادس

زَمَنُ الْعُزْلَةِ

١ — أعداء الزِّراعَةِ

حَلَّ الْيومُ الْمُتَمِّمُ لِلثَّلاثِينَ مِنْ « سِبْتَمْبِرَ » ، وهُوَ الذِّكْرَى الثَّانِيَةُ لِلْيَوْمِ الْمَشْئُومِ الَّذِي حَلَلْتُ فِيهِ هٰذِهِ الْجَزِيرَةَ الْمُوحِشَةَ النَّائِيَةَ ، حَيْثُ كُتِبَ عَلَيَّ أَنْ أَتْرُكَ الْعالَمَ وَأَسْتَسْلِمَ لِلْعُزْلَةِ . عَلَى أَنَّنِي وجَدْتُ فِي الْعَمَلِ راحَةً عَظِيمَةً ، وظَفِرْتُ — بِجِدِّي ودُءُوبِي ومُثابَرَتِي[1] — بِنَتائِجَ باهِرَةٍ . فَجَنَيْتُ فِي آخِرِ الْخَرِيفِ مَحْصُولًا وافِرًا مِنَ الْحُبُوبِ . وَلٰكِنَّ فَرَحِي بِهِ لَمْ يَدُمْ طَوِيلًا ؛ فَقَدْ نَغَّصَهُ عَلَيَّ عَبَثُ الْجِداءِ بِهِ . وكُنْتُ أَرَى بَعْضَ حَيَوانِ الْجَزِيرَةِ — وهُوَ أَشْبَهُ شَيْءٍ بِالْأَرْنَبِ الْجَبَلِيِّ — يَعِيثُ بِزَرْعِي فَسادًا . وقَدِ اسْتَمْرَأَ[2] الْقَمْحَ — وَهُوَ عَلَى سُوقِهِ — وأَغْرَتْهُ لَذَّتُهُ بِإِفْسادِ ما زَرَعْتُهُ مِنْهُ . فَلَمْ أَرَ بُدًّا مِنْ تَسْوِيرِ الْحَقْلِ بِسِياجٍ مِنَ

(١) صبري ومواظبتي . (٢) استطاب .

الأَعْشابِ المُرْتَفِعةِ . وقَدْ جَهَدَنِى ذٰلكَ ثلاثَةَ أسابِيعَ . ولَمْ آلُ جُهْدًا فى مُطارَدَةِ هٰذِهِ الأَعْداءِ الْخَبِيثَةِ نَهارًا ، فَإِذا جاءَ اللَّيلُ رَبَطْتُ الكلْبَ إلى حَبْلٍ طَوِيلٍ مُثَبَّتٍ فى بابِ الْحَقْلِ ، فَلا يَفْتَأُ يَنْبَحُ طُولَ اللَّيْلِ حتَّى يُزْعِجَها ؛ فَلَمْ تَلْبَثْ أنْ هَجَرَتِ الْبُقْعَةَ الَّتى كُنْتُ فِيها ، ولَمْ تَعُدْ تَدْنُو مِنْها بَعْدَ ذٰلكَ . واسْتَرَحْتُ مِنْ عَبَثِ هٰذِهِ الأَعْداءِ[1] ، حتَّى حانَ وَقْتُ الْحَصادِ . فَظَهَرَ لى أَعْداءٌ جُدُدٌ ؛ إذْ أقبلَتِ الطُّيُورُ على سَنابِلِ الشَّعِيرِ تَلْتَهِمُها ، واسْتَمْرَأَتْ هٰذا الطَّعامَ الشَّهِيَّ . على أنَّنِى لَمْ أَيْأَسْ مِنَ النَّجاحِ فى مُطارَدَتِها ، فَظَلِلْتُ أحْرُسُ حَقْلِى لَيْلَ نَهارَ ، وَأَصْطادُ بِبُنْدُقِيَّتِى كُلَّ طائِرٍ يَدْنُو مِنْ حَقْلِى ؛ حتَّى ذُعِرَتِ الطُّيورُ وَتَمَلَّكَها الرُّعْبُ ، فهَجرَتِ الْحَقْلَ وَما يَكْتَنِفُهُ[2] ، ولَمْ تَجْرُؤْ على الدُّنُوِّ مِنْ هٰذِهِ الْبُقْعَةِ . وَهٰكَذا تَمَّ لِيَ الظَّفَرُ ، وَارْتاحَ بالِى ، وَنَضِجَ الزَّرْعُ فى الأَيَّامِ الأَخِيرَةِ مِنْ « دِيسَمْبِرَ »

٢ — أَدواتُ الزَّارِعِ

وقَدِ اشْتَدَّتْ حَيْرَتِى وارْتِباكِى حِينَ هَمَمْتُ بِجَنْيِ هٰذا الْمَحْصُولِ

---

(١) ما فعلته من الأذية . (٢) ما يحيط به .

وَلَيْسَ عِنْدِي مِنَ ٱلْأَدَواتِ ما يُساعِدُنِي عَلَى ذٰلكَ . وعَنَّ لِي أنْ أصْنَعَ مِنْجَلًا ، وَهُوَ آلَةٌ مِن ٱلْحَديدِ مُنْحَنِيَةٌ يُقْطَعُ بِها الزَّرْعُ .

فَصَنَعْتُهُ مِنْ سَيْفٍ وَغُصْنِ شَجَرَةٍ . وَقَطَعْتُ السَّنابِلَ ، ثُمَّ فَرَكْتُها بِيَدَيَّ ، وعَزَمْتُ عَلَى بَذْرِها جَميعاً فى ٱلْمَوْسِمِ ٱلْقابِلِ . وَهُنا تَمَثَّلَ لِي مِقْدَارُ ما يُعانِيهِ ٱلْإِنْسانُ إذا حاوَلَ — بِمُفْرَدِه — أنْ يَظْفَرَ بِرَغِيفٍ واحِدٍ مِنَ ٱلْخُبْزِ ؛ فَقَدْ كُنْتُ فى حاجَةٍ إلى مِحْراثٍ وَفَأْسٍ وَما إلى ذٰلِكَ مِنْ أدواتِ الزِّراعةِ . فَإذا تَمَّ ٱلْحَصادُ ٱشْتَدَّتْ حاجَتِي إلَى طاحُونَةٍ وَمُنْخُلٍ وَفُرْنٍ وَما إلى ذٰلِك مِنَ الْمِلْحِ وَغَيْرِهِ . وَلٰكِنَّ الْجِدَّ والْمُثابَرَةَ كَفِيلانِ بِالتَّغَلُّبِ عَلَى كلِّ عَقَبَةٍ . وَقَدْ تَمَّ لِي كلُّ ما أرَدْتُ بِفَضْلِ الْعَزِيمَةِ عَلَى الْعَمَلِ ،

لِأَنَّنِي كُنْتُ لا أُضِيعُ وَقْتِي عَبَثًا . فَإِذا هَطَلَتِ الأَمْطارُ لَزِمْتُ بَيْتِي ، وَأَقْبَلْتُ عَلَى بَبَّغائِي أُعَلِّمُها النُّطْقَ ، حَتَّى وَصَلْتُ إِلَى نَتائِجَ باهِرَةٍ .

٣ — صِناعَةُ الْفَخَّارِ

وَلَمَّا كانَتِ الْحاجَةُ تَفْتُقُ الْحِيلَةَ[١] ، اضْطُرِرْتُ إِلَى مُزاوَلَةِ صِناعَةِ الْفَخَّارِ ، وَلَمْ يَكُنْ لِي بِها عَهْدٌ مِنْ قَبْلُ . وَقَدْ نَجَحْتُ فِي ذٰلِكَ — بَعْدَ مَرانَةٍ طَوِيلَةٍ ، وَتَجارِبَ كَثِيرَةٍ — فَصَنَعْتُ كَثِيرًا مِنَ الْجِرارِ[٢] وَالْأَوانِي وَالْقِصاعِ[٣] وَالصِّحافِ[٤] . وَما زِلْتُ أَرْتَقِي فِي هٰذِهِ الصِّناعَةِ حَتَّى بَلَغْتُ حَدًّا جَدِيرًا بِالتَّهْنِئَةِ .

٤ — الزَّوْرَقُ الْكَبِيرُ

عَلَى أَنَّ هٰذِهِ الْأَعْمالَ الْكَثِيرَةَ الْمُرْهِقَةَ لَمْ تُنْسِنِي رَغْبَتِيَ الشَّدِيدَةَ فِي ارْتِيادِ الْأَرْضِ الْبَعِيدَةِ الَّتِي رَأَيْتُها — مِنْ قَبْلُ — تُجاهَ الْجَزِيرَةِ . فَقَدْ كُنْتُ آمُلُ أَنْ أَجِدَ فِيها وَسِيلَةً لِلْعَوْدَةِ إِلَى « لَنْدَنَ » .

(١) الضرورة تبعث على ابتكار الحيلة (٢) جمع جرة (٣) جمع قصعة

(٤) جمع صحفة . وهي الطبق .

وذَكَرْتُ زَوْرَقَ السَّفِينَةِ الَّذِى انْقَلَبَ بِرِفاقِى ، فرأَيْتُهُ لا يَزالُ كما هُوَ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنَ الشَّاطِئِ مَقْلُوبًا ، وقدْ غاصَ جُزْءٌ مِنْهُ فِى رِمالِ الشَّاطِئِ ، وحاوَلْتُ أنْ أرْفَعَهُ مِنْ مَكانِهِ ، فَذَهَبَتْ كلُّ جُهُودِى عَبَثًا.

فَأَقْبَلْتُ عَلَى جُذُوعِ الْأَشْجارِ ، وبَذَلْتُ كلَّ ما فى وُسْعِى زَمَنًا طَوِيلًا ، حتّى صَنَعْتُ زَوْرَقًا كَبِيرًا يَسَعُ سِتَّةً وعِشْرِينَ راكِبًا .

ولَكِنَّنِى عَجَزْتُ عَنْ نَقْلِهِ إلى الْبَحْرِ ، وأَعْيَتْنِيَ الْحِيَلُ فِى ذلِكَ ، واسْتَحالَ عَلَيَّ أنْ أُزَحْزِحَهُ عَنْ مَكانِهِ ، كما اسْتَحالَ عَلَيَّ أنْ أُزَحْزِحَ زَوْرَقَ السَّفِينَةِ مِنْ قَبْلُ .

٥ — الزَّوْرَقُ الْجَدِيدُ

وانْقَضَى الْعامُ الرَّابِعُ ، فانْتَظَمَتْ أُمُورِى واسْتَقامَتْ . وقدْ صَنَعْتُ — فِيما صَنَعْتُ — قَلَنْسُوَةً(١) كَبِيرَةً مِنْ فِراءِ الْجِداءِ الَّتِي تَصَيَّدْتُها ، كَما صَنَعْتُ مِنْها جِلْبابِى وسِرْوالِى وبَعْضَ الثِّيابِ ، لِتَقِيَنِى غائِلَةَ الْبَرْدِ فِى الشِّتاءِ . وصَنَعْتُ مِظَلَّةً لِتَقِيَنِى غائِلَةَ الْحَرِّ فِى الصَّيْفِ — فَقدْ كانتِ الْجَزِيرَةُ واقِعَةً بِالْقُرْبِ مِنْ خَطِّ الاِسْتِواءِ ، وَكانَ قَيْظُها(٢) لِذٰلِكَ لا يُحْتَمَلُ — فَسَهَّلَتْ عَلَيَّ السَّيْرَ نَهارًا مِنْ غَيْرِ عَناءٍ ، وَآمَنَتْنِي مِنَ الْمَطَرِ والشَّمْسِ . وَكانَ شُغْلِيَ الشَّاغِلُ أَنْ أَصْنَعَ زَوْرَقًا أَصْغَرَ مِنَ الزَّوْرَقِ الَّذِي صَنَعْتُهُ . ولَمْ يَنْتَهِ الْعامُ الْخامِسُ حتَّى أَتْمَمْتُ صُنْعَهُ . وَنَجَحْتُ



(١) غطاء رأس (٢) حرها

فِي ذٰلِكَ نَجاحاً باهِراً . فَجَعلتُ لَهُ شِراعاً ، وَثَبَّتُّ فِيهِ مِظَلَّةً كَبِيرَةً . وَعَقَدْتُ الْعَزْمَ عَلَى الطَّوافِ حَوْلَ الْجَزِيرَةِ لِأَتَعَرَّفَ مَدَى هٰذِهِ الْمَمْلَكَةِ الَّتِي كُتِبَ عَلَيَّ الْقَدَرُ أَنْ أَكُونَ مَلِيكَها ، أَوْ — عَلَى الْأَصَحِّ — مَدَى هٰذا السِّجْنِ الَّذِي أَبَتْ عَلَيَّ الْمَقادِيرُ إِلَّا أَنْ أَكُونَ حَلِيفَهُ(١) وَسَجِينَهُ .

وَهٰكَذا أَعْدَدْتُ الطَّعامَ وَالْماءَ لِهٰذِهِ الرِّحْلَةِ . وَلَمْ أَنْسَ سِلاحِي لِأُدافِعَ بِهِ عَنْ نَفْسِي إِذا حانَ وَقْتُ الْخَطَرِ . وَأَزْمَعْتُ(٢) التَّجْوالَ حَوْلَ الْجَزِيرَةِ ، بَعْدَ تَرَدُّدٍ طَوِيلٍ .

٦ — الطَّوافُ حَوْلَ الْجَزِيرَةِ

وَبَدَأْتُ هٰذِهِ الرِّحْلَةَ فِي الْيَوْمِ السَّادِسِ مِنْ « نُوفَمْبِرَ » ، بَعْدَ أَنْ مَرَّ عَلَيَّ سِتَّةُ أَعْوامٍ فِي مَمْلَكَتِي ، أَوْ فِي سِجْنِي إِنْ تَوَخَّيْتُ(٣) الصِّدْقَ فِي التَّعْبِيرِ ! وَكانَتْ هٰذِهِ السِّياحَةُ أَطْوَلَ مِمَّا قَدَّرْتُ .

وَقَدْ تَعَرَّضْتُ — فِي أَثْناءِ هٰذِهِ الرِّحْلَةِ — لِكَثِيرٍ مِنَ الْأَخْطارِ ، وَلٰكِنَّ تَوْفِيقَ اللهِ لازَمَنِي ، حَتَّى عُدْتُ إِلَى بَيْتِيَ الرِّيفِيِّ — ذاتَ مَساءٍ — وَقَدْ جَهَدَنِيَ(٤) التَّعَبُ ، فَاسْتَسْلَمْتُ لِنَوْمٍ عَمِيقٍ .

---

(١) ملازمه . (٢) قررت . (٣) قصدت . (٤) أضعفني .

٧ — مُفاجَأَةُ الْبَبَّغاء

شَدَّ ما تَمَلَّكَنِيَ الدَّهَشُ حِينَ طَرَقَ أُذُنِي صَوْتٌ يُنادِينِي بِاسْمِي، وَيَقُولُ فِي وُضُوحٍ وجَلاءٍ:

«رُوبِنْسَنْ! إِيهِ يا رُوبِنْسَن! ها أَنْتَ ذا يا رُوبِنْسَن! مِسْكِينٌ أَنْتَ يا رُوبِنْسَن! أَيْنَ أَنْتَ؟ وَأَيْنَ كُنْتَ؟ وَكَيْفَ تَجِدُكَ يا روبِنْسَن كُرُوزُو؟»



وَقَدْ خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّنِي حالِمٌ، وَلٰكِنَّ الصَّوْتَ عادَ يَقُولُ:

«رُوبِنْسَن كُرُوزُو! إِيهِ يا رُوبِنْسَن!»

فاسْتَيْقَظْتُ مِنْ نَوْمِيَ الْعَمِيقِ، وَقَدْ تَمَلَّكَتْنِيَ الدَّهْشَةُ والذُّعْرُ.

وَما تَبَيَّنْتُ جَلِيَّةَ الْأَمْرِ حَتَّى عاوَدَتْنِيَ الطُّمَأْنِينَةُ، وَسُرِّيَ عَنْ نَفْسِي[1]، إِذْ عَلِمْتُ أَنَّ بَبَّغائِي هِيَ

(١) ذهب عنها الفزع.

مصدَرُ هٰذا الصّوتِ . فقَدْ رأيتُها قائمَةً على السِّياجِ ، فعجِبتُ مِن اهْتِدائِها إلى هٰذا الْبَيْتِ ، وقدْ تَرَكْتُها في الْكهفِ . وَعَجِبْتُ مِنْ تَخَيُّرِها هٰذا الْمَكانَ . وَلَمْ أَهْتَدِ إلى حَلِّ هٰذا اللُّغزِ . ثمَّ نادَيْتُها باسْمِها ، فأَسْرَعَتْ إليَّ ، ووقفَتْ عَلَى إبْهامِي ، وَهِيَ تُكَرِّرُ سُؤالَها مَسْرُورَةً مُبْتَهِجَةً بِلقائِي :

« أينَ كُنتَ يا رُوبِنْسُنْ كُرُوزُو ؟ أَيْنَ كُنْتَ يا مِسْكِينُ ؟ »

فَأَخَذْتُها مَعِي إلى الْكَهْفِ ، حَيْثُ عِشْتُ زُهاءَ عامٍ[1] في عُزْلَةِ السَّجينِ ولَمْ يَكُنْ يُنَغِّصُ[2] عَلَيَّ صَفائِي وَسَعادَتِي في هٰذِهِ الْجَزِيرَةِ إلّا أَنَّها مُقْفِرَةٌ عازِبَةٌ[3] لَيْسَ بِها أَنِيسٌ .

٨ — صَيْدُ الْمِعِيزِ

وَقدْ أَتْقَنْتُ كَثيرًا مِنَ الصِّناعاتِ ، وبَرَعْتُ فِيها بَراعَةً نادِرَةً ، وَنَجَحْتُ في صِناعَةِ الْفَخَّارِ وعَمَلِ السِّلالِ . وكُنْتُ أَصْطادُ الْمِعِيزَ والسَّلاحِفَ كُلَّما احْتَجْتُ إلى ذٰلكَ . فَرَأيْتُ الْبارُودَ الَّذِي ادَّخَرْتُهُ عِنْدِي قَدْ نَقَصَ ، فخَشِيتُ أَنْ يَنْفَدَ ، وبِذٰلِكَ أَعْجِزُ أَنْ أَصْطادَ شَيْئًا مِنَ الحَيَوانِ . فلَمْ أَجِدْ بُدًّا مِنْ تَغْييرِ خُطَّتِي[4] هٰذهِ ، فَنَصَبْتُ شِباكًا لأَصْطادَ

(١) نحو سنة . (٢) يكدر . (٣) بعيدة . (٤) طريقتي .

مَعِيزًا عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ . وَلَمْ تَكُنْ شِبَاكِي صَالِحَةً لِصَيْدِهَا ، فَقَدْ أَفْلَتَتْ مِنْهَا الْمَعِيزُ الَّتِي وَقَعَتْ فِيهَا ، لِضَعْفِ حِبَالِهَا . فَلَجَأْتُ إِلَى طَرِيقَةٍ أُخْرَى .

وَذَلِكَ أَنِّي حَفَرْتُ حُفَرًا عَمِيقَةً فِي الْجِهَاتِ الَّتِي اعْتَادَتِ الْمِعْزَى أَنْ تَرْتَادَهَا[1] ، وَغَطَّيْتُ تِلْكَ الْحُفَرَ بِشِبَاكٍ مِنْ شَجَرِ الصَّفْصَافِ ، وَأَلْقَيْتُ عَلَيْهَا طَبَقَةً مِنَ التُّرَابِ ، وَغَرَسْتُ فِيهَا سَنَابِلَ مِنَ الرُّزِّ وَالشَّعِيرِ . وَقَدْ أَخْفَقَتْ[2] هٰذِهِ الطَّرِيقَةُ — كَمَا أَخْفَقَتْ سَابِقَتُهَا مِنْ قَبْلُ — فَقَدْ كَانَتِ الْمَعِيزُ تَنْفِرُ مِنْهَا . ثُمَّ لَمْ تَلْبَثْ أَنْ خُدِعَتْ — بَعْدَ قَلِيلٍ — فَهَوَى فِي إِحْدَى الْحُفَرِ تَيْسٌ عَنِيدٌ ؛ فَلَمْ أُفْلِحْ فِي تَسْكِينِ ثَوْرَتِهِ وَهِيَاجِهِ ، فَاضْطُرِرْتُ إِلَى إِطْلَاقِهِ . وَلَوْ أَنَّنِي تَرَكْتُهُ فِي الْحُفْرَةِ أَيَّامًا حَتَّى يُدَوِّخَهُ الْجُوعُ فَيَسْلَسَ[3] قِيَادُهُ ، لَتَمَّ لِي مَا أَرَدْتُ . وَلٰكِنَّ هٰذِهِ الْفِكْرَةَ لَمْ تَمُرَّ بِخَاطِرِي إِلَّا نَيِّئًا[4] .

ثُمَّ وَقَعَ فِي حُفْرَتَيْنِ أُخْرَيَيْنِ مَاعِزَتَانِ صَغِيرَتَانِ وَجَدْيٌ صَغِيرٌ ، فَأَخَذْتُهَا جَمِيعًا إِلَى مَسْكَنِي . وَقَدْ أَبَتْ أَنْ تَأْكُلَ شَيْئًا . ثُمَّ رَاضَهَا الْجُوعُ[5] ، وَاضْطَرَّهَا إِلَى أَكْلِ مَا قَدَّمْتُهُ لَهَا مِنَ الْحُبُوبِ .

---

(١) تروح فيها وتجيء . (٢) لم تنجح . (٣) يلين (٤) بعد فوات الفرصة (٥) ذللها .

وبذلتُ جُهدي في تهيئةِ مَرعًى خِصْبٍ ، وسوّرتُه بِسياجٍ مَتينٍ مِنَ الأعشابِ الكثيفةِ ، حتّى لا تجدَ إلى الفرارِ سبيلًا .

وظللتُ أتعهّدُها بأحسنِ ألوانِ الطّعامِ الحبيبِ إلى نفسِها مِنْ سَنابِلِ الشّعيرِ وحُبوبِ الرُّزّ حتّى أنِسَتْ بي . ففككتُ رِباطَها فلَمْ تهرُبْ منّي ، وظلّتْ تتبعُني أنّى سِرْتُ ، وتثغو[1] فرِحةً بمقدَمي كلّما رأتني . وبعدَ عامٍ ونِصْفِ عامٍ أصبحَ لدَيَّ قطيعٌ[2] لا يقِلُّ عَنِ اثْنَيْ عَشَرَ جديًا وعنزًا . ثُمَّ تضاعفَ العدَدُ على مَرِّ الأيّامِ ، وأصبحَتْ حياتي رَغَدًا[3] ، وعيشَتي وادِعةً ناعِمةً ؛ فقدْ كانتْ تُدِرُّ[4] مَقاديرَ وافِرةً مِنَ اللّبَنِ . فلَمْ أُضِعْ هذهِ الفُرْصَةَ ، وعزَمْتُ على صُنْعِ الجُبْنِ والزُّبْدِ مِنْ ألبانِها ، ولَمْ يكُنْ لي بذلِكَ عَهْدٌ مِنْ قبلُ .

وما زِلتُ أُدرِّبُ نفسي على هذا العَمَلِ ، حتّى وُفّقْتُ إليْهِ ، ونجحْتُ في تحقيقِهِ أكبرَ نجاحٍ .

٩ — رِفاقُ « رُوبِنْسن »

وكانتْ مائدَتي — في كُلِّ يَوْمٍ — حافِلةً[5] بشتّى ألوانِ

---

(١) تردد صوتها . (٢) جمع . (٣) هانئة . (٤) تعطي . (٥) مملوءة

الْغِذاء . وقَدْ نَعِمْتُ بِرِفاقِ الْخُلَصاء : فالْبَبْغاء تُنادِمُنِي[١] وَتُسَلِّينِي بِحَدِيثِها ، والْكَلْبُ يَجْلِسُ إلى يَمِينِي — عَلَى الْمائِدَةِ — ويَجْلِسُ الْقِطَّانِ إِلَى يَسارِي مُتقابِلَيْنِ . وقَدْ عَلِمَ الْقارِئُ — فِيما سَبَقَ — أَنَّنِي أَحْضَرْتُ مَعِيَ قِطَّيْنِ مِنَ السَّفِينَةِ ؛ فَلْيَعْلَمِ الْقارِئُ الْآنَ أَنَّهما ماتا مُنْذُ زَمَنٍ طَوِيلٍ ، بَعْدَ أَنْ نَسَلا[٢] كَثِيرًا مِنَ الْقِطَطِ ، ولَمْ يُخْلِصْ لِي مِنْها غَيْرُ هٰذَيْنِ الْقِطَّيْنِ . أَمَّا إِخْوَتُهُما فَكانَتْ شِرِّيرَةً ماكِرَةً ، تَسْرِقُ كُلَّ ما تَلْقاهُ فى طرِيقِها مِنَ الطَّعام ؛ فَطَرَدْتُها مِنْ بَيْتِي شَرَّ طَرْدَةٍ ، بَعْدَ أَنْ نَكَّلْتُ بِها[٣] . فَهَرَبَتْ إلى الْغابَةِ ، ولَمْ تَلْبَثْ إِلَّا قَلِيلًا حتَّى عادَتْ إِلَى طَبْعِها الْوَحْشِيِّ الشَّرِسِ

١٠ — زِيُّ « رُوبِنْسَنْ »

لَعَلَّ الْقارِئَ قَدِ اشْتاقَ إِلَى تَعَرُّفِ الزِّيِّ[٤] الَّذِي اخْتَرْتُهُ لِنَفْسِي كُلَّما أَرَدْتُ أَنْ أَجُولَ فِي مَمْلَكَتِيَ الصَّغِيرَةِ . فَلْأُمَثِّلْ لَهُ ذٰلِكَ الزِّيَّ الْعَجِيبَ :

---

(١) تباسطنى . (٢) ولدا . (٣) آذيتها . (٤) الملبس .

كانَتْ قَلَنسُوَتِى[١] مُرْتَفِعَةً ، وقَدْ صَنَعْتُها مِنْ جِلْدِ عَنْزٍ . وكانَتْ عَذَبَتُها[٢] مُدَلَّاةً عَلَى قَفاىَ لِتَحْمِيَنِى مِنْ وَهَجِ الشَّمْسِ .

وكانَ سِرْوالِي مَصْنُوعاً مِنْ جِلْدِ تَيْسٍ هَرِمٍ ، والشَّعَرُ يَتَدَلَّى مِنْهُ إلى نِصْفِ ساقِى .

* * *

وكُنْتُ أَضَعُ فِى حِزامِى — وهُوَ أَيْضًا مِنْ جِلْدِ الْمَعِيزِ — مِنْشارًا وقَدُومًا ، وأَحْمِلُ على كَتِفِى بُنْدُقِيَّةً ، وأَحْمِلُ عَلَى ظَهْرِى سَــلَّةً كَبِيرَةً ، فِيها طَعامِى وشَرابِى ، وفِى يَدِى مِظَلَّتِى ، لِتَقِيَنِى لَفْحَ الشَّمْسِ[٣] ، وهُطُولَ الأَمْطارِ .

---

(١) غطاء رأسى . (٢) طرفها (٣) حرها

الفصل السابع

جُمعَة

١ – آثارُ أقدامٍ



وفي ذاتِ يومٍ رأيتُ آثارَ أقدامٍ واضِحةً عَلى الرَّمْلِ ؛ فتملَّكني الذُّعْرُ ، وخُيِّلَ إلَيَّ أنَّ صاعِقةً انْقضَّتْ علَيَّ .

وَتلفَّتُّ حولِي خائِفاً ، وأرْهَفْتُ أُذُنِي(١) فلَمْ أرَ إنساناً ، ولَمْ أسْمعْ صوْتاً .

وَصَعِدْتُ إلى أعْلى

---

(١) أصغيت .

هَضْبَةٍ مُرْتَفِعَةٍ ، وَأَجَلْتُ لِحاظِي فِي كلِّ مَكانٍ ، فَلَمْ أجِدْ شَيْئًا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ فِي هذا ٱلْمَكانِ إنْسِيًّا . وَقَدْ كِدْتُ أَظُنُّنِي واهِمًا[1] فِيما رَأَيْتُ ، وَلٰكِنَّ آثارَ ٱلْقَدَمِ — وَهِيَ عارِيَةٌ — لَمْ تَدَعْ لِي مَجالًا لِلشَّكِّ . فَقَدْ رَأَيْتُ ٱلْأَصابِعَ وَٱلْعَقِبَ مُرْتَسِمَةً عَلَى ٱلرَّمْلِ ، فَلَمْ يَبْقَ عِنْدِي رَيْبٌ[2] فِي حَقِيقَةِ ما رَأَيْتُ . فَأَسْرَعْتُ إلى كَهْفِي ، وَقَدْ خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّ جَيْشًا لَجِبًا[3] يُطارِدُنِي . وَبِتُّ لَيْلَةً نابِغِيَّةً[4] ، وَلَمْ يَزُرِ ٱلنَّوْمُ جَفْنِي حَتَّى مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ، مِنْ شِدَّةِ ٱلْخَوْفِ .

وَلَزِمْتُ بَيْتِي ثَلاثَةَ أَيَّامٍ كامِلَةً ، ثُمَّ ٱضْطَرَّنِيَ ٱلْجُوعُ إلى ٱلْخُرُوجِ إلى بَيْتِيَ ٱلْآخَرِ ٱلَّذِي بَنَيْتُهُ بَيْنَ الْكُرُومِ[5] .

٢ — الْحَيْطَةُ

وَهٰكَذا تَمَلَّكَتْنِيَ ٱلدَّهْشَةُ وَالْحَيْرَةُ . فَقَدْ مَرَّ عَلَيَّ — فِي هٰذِهِ الْجَزِيرَةِ — خَمْسَةَ عَشَرَ عامًا ، لَمْ أَشْهَدْ فِيها أَحَدًا ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ رُؤْيَتِي أَثَرَ ٱلْقَدَمِ .

---

(١) متخيلا . (٢) شك . (٣) كبيراً .
(٤) ليلة طويلة حافلة بالهموم . (٥) أشجار العنب .

ثُمَّ قُلْتُ فِي نَفْسِي: «لَعَلَّ بَعْضَ سُكَّانِ تِلْكَ الْقَارَّةِ الْمُجَاوِرَةِ قَدْ وَفَدُوا عَلَى جَزِيرَتِي؛ عَلَى أَنَّهُمْ سَيَتْرُكُونَها بَعْدَ أَنْ يَجِدُوها غَيْرَ صالِحَةٍ لِلْإِقامَةِ.»

ورَأَيْتُ أنْ أَحْتاطَ لِلطَّوارِئِ، حَتَّى لا يُفاجِئَنِيَ الْأَعْداءُ؛ فَزِدْتُ فِي تَحْصِينِ مَغارَتِي، كما حَصَّنْتُ بَيْتِيَ الْآخَرَ.

وكُنْتُ لا أَدْخُلُ الْبَيْتَ إِلَّا مُسْتَعِيناً بِسُلَّمَيْنِ، فَإِذا انْتَهَيْتُ مِنْ صُعُودِيَ الْأَوَّلِ رَفَعْتُ السُّلَّمَ، ثُمَّ وضَعْتُهُ فَوْقَ صَخْرَةٍ نائِيَةٍ[1] لِأَصِلَ إِلى حِصْنِي. ثُمَّ رَفَعْتُ السُّلَّمَ مَرَّةً أُخْرَى، لِيُصْبِحَ مُسْتَحِيلًا عَلَى كائِنٍ كانَ أَنْ يَصْعَدَ إِلَيَّ.

ولَمْ يَمْضِ عَلَيَّ عامانِ - بَعْدَ ذٰلِكَ - حَتَّى أَصْبَحْتُ عَلَى أَتَمِّ أُهْبَةٍ[2] لِلنَّجاةِ مِنْ كُلِّ خَطَرٍ.

٣ - آثارُ الْغِيلانِ

وفِي ذاتِ يَوْمٍ كُنْتُ أَرْتادُ الْجَزِيرَةَ عَلَى عادَتِي،

(١) بعيدة. (٢) استعداد.

وأتعرّفُ الجهاتِ النائيةَ التي لم تطأها قدمايَ مِنْ قبلُ. فرأيتُ مِنْ آثارِ المتوحّشينَ ما فزّعني، وملأَ قلبي رُعباً وهلعاً. فقدْ ظهرَ لي أنّ هؤلاءِ المتوحّشينَ الهمجَ يجيئونَ بالأسرى -بعدَ أنْ يظفروا بهمْ في معاركِهم[1]- إلى الشاطئِ الجنوبيِّ الغربيِّ مِنْ هذهِ الجزيرةِ، ثمَّ يشوونَ لحومَهمْ على النارِ ويأكلونَها. وقدْ رأيتُ كثيرًا مِنَ الجماجمِ والأشلاءِ[2] مبعثرةً في تلكَ البقعةِ، على مكانٍ قريبٍ مِنَ الرّمادِ الكثيرِ الذي خلّفتْهُ النارُ.

ورجعتُ إلى مسكني مهمومًا شديدَ الألمِ مِمّا رأيتُ. وتبيّنَ لي -حينئذٍ- أنّ آثارَ تلكَ الأقدامِ البشريّةِ التي رأيتُها مُنْذُ عامينِ، لمْ تكنْ إلّا آثارَ أقدامِ هؤلاءِ الغيلانِ. فاطمأنّتْ نفسي قليلًا، بعدَ أنْ عرفتُ هذا السرَّ الذي لمْ أهتدِ إلى معرفتِهِ مدى عامينِ، وكانَ مجلبةً[3] للخوفِ والفزعِ.

وأدركتُ أنّ هؤلاءِ الغيلانَ لا يبحثونَ عنْ شيءٍ في هذهِ الجزيرةِ، وأنّهمْ لا يجيئونَها إلّا ليقيموا مآدبَهمْ[4] فيها، كلّما ظفروا بأسراهمْ في الحروبِ.

(١) حروبهم. (٢) الأعضاء. (٣) سبباً. (٤) مجالس أكلهم.

وَلَقَدْ مَرَّ بِي ثَمانِيَةَ عَشَرَ عاماً ، لَمْ تَقَعْ عَيْناىَ — فِى أَثْنائِها — عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ . فَلَمَّا رَأَيْتُ ما رأيتُ ، اُعْتَصَمْتُ[1] بِالْحَذَرِ ، وَأَعْدَدْتُ الْعُدَّةَ لِلطَّوارِئِ ؛ حَتَّى لا تُفَاجِئَنِى الْحَوادِثُ عَلَى غِرَّةٍ[2] .

٤ — مَأْدُبَةُ الْغِيلانِ

وَفى شَهْرِ « دِيسَمْبِرَ » — وكانَ قَدْ مَرَّ عَلَىَّ حِينَئِذٍ ثَلاثَةٌ وَعِشْرُونَ عاماً فى هٰذِهِ الْجَزِيرَةِ النَّائِيَةِ — لَمْ أَخْرُجْ مِنْ بَيْتِى لِلْحَصادِ فى فَجْرِ هٰذا الْيَوْمِ حَتَّى رَأَيْتُ نُورًا بِالْقُرْبِ مِنَ الشَّاطِئِ ، عَلَى بُعْدِ نِصْفِ مِيلٍ مِنْ بَيْتِى. وَلَمْ أَكُنْ رَأَيْتُ هٰؤُلاءِ الْغِيلانَ يَرْتادُونَ هٰذِهِ الْبُقْعَةَ مِنْ قَبْلُ ؛ فَدَهِشْتُ ، وَتَمَلَّكَنِىَ الرُّعْبُ وَالْفَزَعُ . وَرَجَعْتُ إِلى بَيْتِى مُسْرِعاً ، وَرَفَعْتُ السُّلَّمَ ، وَتَأَهَّبْتُ لِلدِّفاعِ عَنْ نَفْسِى . وَظَلِلْتُ أَتَرَقَّبُ الْعَدُوَّ ساعَتَيْنِ ، ثُمَّ لَمْ أُطِقْ صَبْرًا عَلَى الْبَقاءِ أَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ ؛ فَصَعِدْتُ حَتَّى بَلَغْتُ أَعْلَى الصَّخْرَةِ — بَعْدَ أَنْ وَضَعْتُ عَلَيْها السُّلَّمَيْنِ — وَانْبَطَحْتُ عَلَى الْأَرْضِ . وَنَظَرْتُ إِلَيْهِمْ بِمِنْظارِى : فَرَأَيْتُ تِسْعَةً مِنْ هٰؤُلاءِ الْغِيلانِ جالِسِينَ — فى شَكْلِ حَلْقَةٍ — حَوْلَ نارٍ

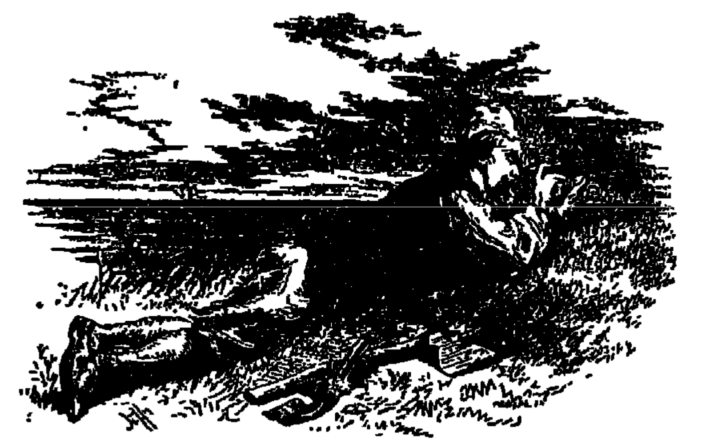
(١) تمسكت . (٢) غفلة .

مُوقَدَةٍ ، لِيُهَيِّئُوا طَعامَهُمْ مِنَ ٱلأَسْرَى ٱلَّذِين جاءُوا بِهِمْ إلى هٰذِهِ ٱلْجَزِيرَةِ .



وقَدْ جاءَ ٱلْغِيلانُ عَلَى زَوْرَقَيْنِ ، وجَذَبُوهُما إلى ٱلشَّاطِئِ ، وٱنْتَظَرُوا ٱلْجَزْرَ حَتَّى يَعُودُوا أَدْراجَهُمْ . فَعلِمْتُ أَنَّهُمْ لا يَرْكَبُونَ ٱلْبَحْرَ إلَّا فى أَوْقاتِ ٱلْجَزْرِ ، فاطْمَأَنَّتْ نَفْسِى إلى ذٰلِكَ ، وَأَصْبَحْتُ أَمْشِى فى ٱلْجَزِيرَةِ آمِناً ، فى أَوْقاتِ ٱلْمَدِّ . فَإِذا ٱنْحَسَرَ ماءُ ٱلْبَحْرِ أَخَذْتُ حَذَرِى مِنْهُمْ ، وٱسْتَعْدَدْتُ لِلطَّوارِئِ وٱلْمُفاجَآتِ . ولَمْ يَبْدَإِ ٱلْجَزْرُ حَتَّى رَكِبُوا ٱلزَّوْرَقَيْنِ . بَعْدَ أَنْ رَقَصُوا طَوِيلًا ، وظَلُّوا يَجْدِفُونَ بِقُوَّةٍ حَتَّى ٱخْتَفَوْا عَنْ ناظِرِى ،

فَأَسْرَعْتُ إلَى ٱلْمَكانِ ٱلَّذِى كانَ يَجْلِسُ فيهِ هٰؤُلاءِ ٱلْفِيلانُ ؛ فَرَأَيْتُ



— مِنْ أَثَرِ ٱلْمَأْدُبَةِ ٱلَّتى أَقامُوها — ما رَوَّعَنِى : رَأَيْتُ ٱلعِظامَ ٱلْبَشَرِيَّةَ مُتَناثِرَةً حَوْلَ ٱلنَّارِ ؛ فَثارَتْ نَفْسِى ، وكِدْتُ أَتَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ . وقَدِ ٱشْتَدَّ حَنَقِى[1] عَلَى هٰذِهِ ٱلْقَسْوَةِ ، وعَزَمْتُ عَلَى ٱلْفَتْكِ بِأَوَّلِ مَنْ أُقابِلُهُ مِنْ هٰؤُلاءِ ٱلْفِيلانِ .

٥ — نَجاةُ الأَسِيرِ

وظَلِلْتُ مُصِرًّا على مُناجَزَةِ[2] ٱلْفِيلانِ مُدَّةً طويلَةً . وَمَضَى على ذٰلكَ ثَمانِيَةَ عَشَرَ شَهْرًا ، لَمْ أَعْثُرْ — فى أَثْنائِها — عَلَى أَثَرٍ لِهٰؤُلاءِ الْهَمَجِ .

وفى صَباحِ يَوْمٍ رَأَيْتُ عَلَى الشَّاطِئِ سِتَّةَ زَوارِقَ ؛ فَعَلِمْتُ أَنَّ عَدَدَ ٱلْقادِمِينَ لا يَقِلُّ عَنْ ثَلاثِينَ . فَرَجَعْتُ إلى حِصْنِى ، وَرَأَيْتُهُمْ

(١) زاد غيظى . (٢) محاربة .

بِمِنْظارِى ؛ فَكانَ عَدَدُهُمْ كما تَوَقَّعْتُ مِنْ قَبْلُ . وَتأَهَّبْتُ لِمُناجَزَتِهِمْ ، كَلَّفَنِى ذٰلِكَ ما كَلَّفَنِى . ورَأَيْتُهُمْ يَرْقُصُونَ وقَدِ ٱسْتَوْلَى عَلَيْهِمُ ٱلْمَرَحُ(١) . ثُمَّ أَحْضَرُوا أَسِيرَيْنِ ، فَقَتَلُوا أَحَدَهُما ، وٱنْتَهَزَ ٱلثَّانِى فُرْصَةَ ٱشْتِغالِهِما بِالْأَوَّلِ فَلاذَ بِالْفِرارِ . وظَلَّ يَعْدُو بِأَقْصَى سُرْعَتِهِ ، وَتَبِعَهُ ثَلاثَةٌ مِنَ ٱلْغِيلانِ ، ولٰكِنَّهُمْ لَمْ يَسْتَطِيعُوا ٱللَّحاقَ بِهِ .

ثُمَّ ٱعْتَرَضَهُ خَلِيجٌ صَغِيرٌ ؛ فَأَلْقَى بِنَفْسِهِ فِيهِ ، وسَبَحَ بِقُوَّةٍ عَجِيبَةٍ حَتَّى أَدْرَكَ ٱلشَّاطِئَ ٱلآخَرَ ، ولَمْ يُبالِ بِارْتِفاعِ ٱلْمَدِّ وٱضْطِخابِ ٱلْأَمْواجِ .

وتَعَقَّبَهُ ٱثْنانِ ، وعادَ ٱلثَّالِثُ إِلى رِفاقِهِ .

ورَأَيْتُ ٱلْفُرْصَةَ سانِحَةً لِإِنْقاذِ هٰذا ٱلأَسِيرِ ؛ لِأَنَّنِى كُنْتُ فى أَشَدِّ الْحاجَةِ إِلى خادِمٍ يُعاوِنُنِى فى تِلْكَ ٱلْجَزِيرَةِ ٱلْمُقْفِرَةِ ٱلْمازِبَةِ .

فَأَسْرَعْتُ إِلَيْهِمْ — وَفِى يَدِى بُنْدُقِيَّتِى — وَأَشَرْتُ إِلى ٱلْأَسِيرِ أَنْ يَقِفَ ؛ فَلَمْ تَطْمَئِنَّ نَفْسُهُ إِلَيَّ ، وَخَشِيَ أَنْ يَدْنُوَ(٢) مِنِّى ، وَحَسِبَنِى مِنْ أَعْدائِهِ . ثُمَّ فاجَأْتُ أَحَدَ الْمُتَوَحِّشَيْنِ اللَّذَيْنِ يَتْبَعانِهِ ، فَضَرَبْتُهُ بِقَبْضَةِ بُنْدُقِيَّتِى ضَرْبَةً شَدِيدَةً ؛ فَخَرَّ صَرِيعاً(٣) عَلَى الْأَرْضِ . وَحاوَلَ

---

(١) الفرح . (٢) يقرب . (٣) وقع ساقطاً .

الثَّانِى أَنْ يُفَوِّقَ(١) إلَىَّ سِهامَهُ ؛ فَعاجَلْتُهُ بِرَصاصَةٍ أَرْدَتْهُ — مِنْ فَوْرِهِ — قَتِيلًا .

وَوَقَفَ الْأَسِيرُ الْهارِبُ — حِينَئِذٍ — وَقَدْ تَمَلَّكَهُ الْذُّعْرُ حِينَ سَمِعَ دَوِىَّ(٢) الرَّصاصِ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ بِمِثْلِ ذٰلِكَ عَهْدٌ مِنْ قَبْلُ . فَأَشَرْتُ إِلَيْهِ أَنْ يَدْنُوَ مِنِّى ؛ فَتَرَدَّدَ فى إطاعَةِ أَمْرِى . فَأَشَرْتُ إِلَيْهِ مَرَّةً ثانِيَةً ؛ فَاشْتَدَّ فَزَعُهُ ، وَظَلَّ يَتَقَدَّمُ خُطُواتٍ يَسِيرَةً(٣) ، ثُمَّ يَقِفُ مُتَرَدِّدًا وقَدْ أَذْهَلَهُ الرُّعْبُ . فَأَشَرْتُ إِلَيْهِ إشارَةً ثالِثَةً ، وَأَنا أُحاوِلُ جَهْدِى أَنْ أُطَمْئِنَهُ وَأُسَكِّنَ مِنْ رُوعِهِ . فَتَقَدَّمَ حَتَّى دانانِى ، وَجَثا(٤) أَمامِى مُتَوَسِّلًا ضارِعًا ؛ فَهَشَشْتُ لَهُ ، فانْثَنَى يُقَبِّلُ قَدَمِى ؛ فَتَلَطَّفْتُ لَهُ مُتَوَدِّدًا حَتَّى أَذْهَبْتُ عَنْهُ الْخَوْفَ .

ثُمَّ صَحِبْتُهُ إِلى مَغارَتِى ، وَأَطْعَمْتُهُ وسَقَيْتُهُ ، وأَشَرْتُ إِلى كُومَةٍ مِنَ الْقَشِّ ، لِيَتَّخِذَها فِراشًا لَهُ ؛ فَذَهَبَ لِيَنامَ .

٦ — « جُمُعَـــةُ »

وَهٰكَذا انْقَضَى زَمَنُ الْعُزْلَةِ ، وَأَصْبَحَ لِى — مُنْذُ ذٰلِكَ الْيَوْمِ —

(١) يوجه . (٢) صوت . (٣) قليلة . (٤) قعد على ركبتيه .

رَفِيقٌ أَمِينٌ ، شُجاعُ ٱلْقَلْبِ ، فِى مُقْتَبَلِ شَبابِهِ : لَمْ تَكُنْ سِنُّهُ تَزِيدُ عَلَى خَمْسَةٍ وعِشْرِينَ عاماً . وَكانَ هٰذا ٱلْخادِمُ مِثالَ النَّشاطِ وَالذَّكاءِ وَٱلْوَداعَةِ .

وَلَمْ يَنَمْ نِصْفَ ساعَةٍ حتَّى ٱسْتَيْقَظَ ، وَخَرَجَ مِنَ ٱلْكَهْفِ مُسْرِعاً ، إلى أن وصلَ إلَىَّ — وكُنْتُ أَحْلُبُ عَنْزًا — فانْطَرَحَ عَلَى قَدَمِى ، ورَفَعَها فَوْقَ رَأْسِهِ ، لِيُفهِمَنى أَنَّهُ طَوْعُ أَمْرِى ورَهْنُ إشارَتى . فهَشَشْتُ لَهُ وأَقْبَلْتُ عَلَيْهِ حتَّى رَكَنَ إلَىَّ ، وسُرِّىَ عَنْ نَفْسِهِ[1] ، وانْقَضَى ما كان يُساوِرُهُ[2] مِنَ ٱلْقَلَقِ .

ثُمَّ بَذَلْتُ جُهْدِى فى تَعْليمِهِ لُغَتِى ، لِيَسْهُلَ عَلَيْنا أَنْ نَتَفاهَمَ مَعاً . وقَدْ سَمَّيْتُهُ « جُمْعَةَ » ؛ لِأَنَّنِى أَنْقَذْتُهُ مِنَ ٱلْهَلاكِ فى يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ ٱلْجُمَعِ ، وهُوَ أَوَّلُ يَوْمٍ عَرَفْتُهُ فِيهِ . ثُمَّ أَشَرْتُ إلَيْهِ أَنْ يُسَمِّيَنِى « ٱلسَّيِّدَ » ، وَعَلَّمْتُهُ لَفْظَتَيْ : « نَعَمْ » و « لا » . ثُمَّ قَدَّمْتُ لهُ جَرَّةً ، ومَلَأْتُ الْجَرَّةَ لَبَناً ، وغَمَسْتُ فِيها قِطْعَةً مِنَ الْخُبْزِ وأَكَلْتُ . وأَشَرْتُ إلَيْهِ أَنْ يَأْكُلَ مِثْلِي ؛ فَلَمْ يَتَرَدَّدْ فِى تَقْلِيدِى فِيما رَأَى مِنِّى .

(١) ذهب همه . (٢) يشغله .

وقَدِ استَساغَ هٰذا الطَّعامَ(١) ، وبَدا عَلَى وَجْهِهِ السُّرُورُ . ثُمَّ صَنَعْتُ لَهُ ثِيابًا كَثِيابِى ، وَقَلَنسُوَةً مِنْ جِلْدِ أَرْنَبٍ . وَصَنَعْتُ لَهُ — فى الْيَوْمِ التَّالِى — كُوخًا بِالْقُرْبِ مِنْ كَهْفِى لِيَنامَ فِيهِ ؛ لِأَنَّنِى كُنْتُ أَخْشَى أَنْ تُعاوِدَهُ(٢) وَحْشِيَّتُهُ ، فَيَفْتِكَ بِى — فى أَثْناءِ نَوْمِى — وَيأْكُلَنِى .

عَلَى أَنَّ الْأَيَّامَ أَقْنَعَتْنِى — بَعْدَ ذٰلِكَ — بِإِخْلاصِهِ ؛ فَلَمْ أَرَنِى فِى حاجَةٍ إِلَى الْحَذَرِ مِنْهُ . وَقَدْ وَفَى لِى(٣) وَفاءَ الْوَلَدِ لِأَبِيهِ ،

(١) وجده لذيذاً . (٢) ترجع إليه . (٣) حافظ على .

وَكانَ مُسْتَعِدًّا لِبَذْلِ رُوحِهِ فِداءً لِي . وَمَرَّتْ بنا الأَيَّامُ سَعِيدَةً وادِعَةً(١) .

وَكُنْتُ — فِي ذاتِ يَوْمٍ — سائِرًا مَعَ « جُمْعَة » فِي أَحَدِ الأَحْراجِ ، فَأَطْلَقْتُ رَصاصَةً عَلَى أَحَدِ الْجِداءِ ؛ فَصَرَعْتُهُ(٢) . وَما رَآنِي صَرَعْتُ الْجَدْيَ — وَأَنا عَلَى مَسافَةٍ بَعِيدَةٍ مِنْهُ — حَتَّى اشْتَدَّ ذُعْرُهُ ، وَانْتَظَمَهُ الرُّعاشُ مِمَّا رَأَى وَسَمِعَ . فَقَدْ أَذْهَلَهُ صَوْتُ الرَّصاصَةِ ، وَظَلَّ يَبْحَثُ فِي ثِيابِهِ ، وَهُوَ يَخْشَى أَنْ تَكُونَ قَدْ أَصابَتْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُ . فَلَمَّا أَيْقَنَ أَنَّهُ لَمْ يُصِبْهُ أَقَلُّ ضَرَرٍ ، انْطَرَحَ عَلَى قَدَمِي ضارِعًا(٣) أَلَّا أَقْتُلَهُ . فَطَمْأَنْتُهُ — مَرَّةً أُخْرَى — وَلاطَفْتُهُ، وَأَشَرْتُ إِلَيْهِ أَنْ



(١) هادئة . (٢) قتلته . (٣) راجياً .

يَذْهَبَ لِيُحْضِرَ ٱلْجَدْيَ . ثُمَّ أَرَيْتُهُ بُنْدُقِيَّتِي ، وَصَوَّبْتُهَا إِلَى بَبْغاءَ جاثِمَةٍ[١] عَلَى شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ ، وَأَخْبَرْتُهُ أَنِّي أُرِيدُ صَيْدَ تِلْكَ ٱلْبَبْغاءِ . وَما أَطْلَقْتُ عَلَيْها ٱلرَّصاصَةَ حَتَّى ٱشْتَدَّ ذُعْرُهُ ، وَعَجِبَ مِمَّا فَعَلْتُ أَشَدَّ ٱلْعَجَبِ ، وَتَمَلَّكَتْهُ ٱلْحَيْرَةُ ؛ وَأَصْبَحَ يَرْتَعِدُ خَوْفًا كُلَّما رَأَى تِلْكَ ٱلْبُنْدُقِيَّةَ .

وَكانَ فِي بَعْضِ ٱلْأَيَّامِ يُكَلِّمُها مُسْتَعْطِفًا ، ضارِعًا إِلَيْها أَنْ تُبْقِيَ عَلَى حَياتِهِ ، وَأَلَّا تَصْرَعَهُ كَما صَرَعَتْ غَيْرَهُ مِنْ قَبْلُ ! وَلَمَّا جاءَ ٱلْمَساءُ سَلَخْتُ ٱلْجَدْيَ ، وَشَوَيْتُهُ ، وَأَطْعَمْتُ « جُمْعَةَ » مِنْ لَحْمِهِ ؛ فَاسْتَمْرَأَهُ[٢] . وَأَصْبَحَ — مُنْذُ ذٰلِكَ ٱلْيَوْمِ — يَعافُ[٣] ٱللَّحْمَ ٱلْبَشَرِيَّ ، وَلا يَسْتَسِيغُهُ طَعامًا .

٧ — نَشاطُ « جُمْعَةَ »

وَفِي ٱلْأَيَّامِ التَّالِيَةِ دَرَّبْتُ « جُمْعَةَ » عَلَى ٱلْحَرْثِ وَٱلْبَذْرِ ، وَوَضْعِ الشَّعِيرِ فِي السِّلالِ ، وَطَحْنِهِ وَعَجْنِهِ وَخَبْزِهِ . وَلَمْ يَمْضِ عَلَيْهِ زَمَنٌ يَسِيرٌ حَتَّى أَكْسَبَتْهُ ٱلْمَرانَةُ قُدْرَةً نادِرَةً عَلَى صُنْعِ كُلِّ شَيْءٍ دَرَّبْتُهُ عَلَيْهِ . وَأَصْبَحَ لِي خَيْرَ مِعْوانٍ ، بِفَضْلِ ما وَهَبَهُ ٱللهُ مِنَ ٱلذَّكاءِ وَالنَّشاطِ

(١) قاعدة . (٢) استحسنه . (٣) يكره .

وَالْإِخْلاصِ . وَشَعَرْتُ بِالسَّعادَةِ تَغْمُرُنِي(١) ، مُنْذُ وَجَدْتُ ذٰلِكَ الْمُعِينَ الذَّكِيَّ . وَقَدْ أَصْبَحَ يُخْلِصُ لِي بِمِقْدارِ ما أُخْلِصُ لَهُ ؛ وَتَوَثَّقَتْ أَوَاصِرُ الْمَحَبَّةِ بَيْنَنا ، وَعَرَفَ أَسْماءَ الْأَشْياءِ الَّتِي نَحْتاجُ إِلَيْها ، وَحَذَقَ تَخْطِيطَ هٰذِهِ الْجَزِيرَةِ وَمَسالِكَها ؛ فَأَراحَنِي مِنَ الْعَناءِ ، وَوَفَّرَ لِي أَسْبابَ الرَّاحَةِ ، وكانَ لِي نِعْمَ الْأَنِيسُ .

٨ — وَطَنُ « جُمْعَةَ »

وَفِي ذاتِ يَوْمٍ جَرَّنا الْحَدِيثُ إِلَى الْكَلامِ عَنِ الْوَطَنِ ؛ فَسَأَلْتُهُ عَنْ طَرِيقِ الْوُصُولِ إِلَى وَطَنِهِ ، وَهَلْ يَأْمَنُ راكِبُ الْبَحْرِ عَلَى نَفْسِهِ فِي أَثْناءِ هٰذِهِ الطَّرِيقِ ؟ فَأَثْبَتَ أَنَّ الْوُصُولَ إِلَى وَطَنِهِ أَمْرٌ مَيْسُورٌ . وَظَلَّ يُحَدِّثُنِي عَنْ وَطَنِهِ أَحادِيثَ الْمُعْجَبِ الْمَفْتُونِ بِهِ . وَقَدْ أَخْبَرَنِي أَنَّ فِي الْجِهَةِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْ بِلادِهِمْ قَوْمًا بِيضَ الْوُجُوهِ ؛ فَأَدْرَكْتُ أَنَّهُ يَعْنِي بِذٰلِكَ قَوْمًا مِنَ الْإِسْبانِيِّينَ ، وَأَنَّ طَرِيقَ الذَّهابِ إِلَيْهِمْ مَيْسُورٌ مَأْمُونٌ . فَانْفَتَحَ أَمامِي بابُ الْأَمَلِ عَلَى مِصْراعَيْهِ ، وَتَبَيَّنْتُ أَنَّ خَلاصِي مِنْ هٰذِهِ الْجَزِيرَةِ قَرِيبٌ . وَعَقَدْتُ الْعَزْمَ عَلَى إِعْدادِ الْمُعَدَّاتِ لِلسَّفَرِ

(١) تملأ نفسي .

إلى هٰؤُلاءِ ٱلْقَوْمِ ، حَيْثُ أَجِدُ الْوَسائِلَ مُهَيَّأَةً لِلرُّجُوعِ إلى وَطَنِي .



ثُمَّ حَدَّثَنِي أَنَّ زَوْرَقًا كَبِيرًا قَدِ ٱنْقَلَبَ بِراكِبِيهِ — مُنْذُ أَعْوامٍ — وَكانُوا سَبْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا مِنَ الْبِيضِ أَمْثالِى ، وَقَدْ نَجَوْا مِنَ الْغَرَقِ ، وَأَقامُوا — وَما زَالُوا يُقِيمُونَ — بَيْنَ عَشِيرَتِهِ وقَوْمِهِ .

فَسَأَلْتُهُ : « وَكَيْفَ سَلِمُوا مِنْ عَشِيرَتِكَ وَقَوْمِكَ ؟ أَلَمْ يَأْكُلُوهُمْ ؟ »

فَقالَ لى مُتَثَبِّتًا :

« بَلْ أَصْبَحُوا إِخْوَةً لَنا ؛ فَإِنَّ بَنِي وَطَنِي لا يَأْكُلُونَ إِلَّا أَسْراهُمْ فى الْحَرْبِ . أَمَّا الْأَصْدِقاءُ الْمُسالِمُونَ فَلا يَنالُونَهُمْ بِسُوءٍ . »

٩ – ذِكْرَياتُ ٱلوَطَنِ

وَمَضَى عَلَى هٰـذا الْحَدِيثِ زَمَنٌ طَوِيلٌ . ثُمَّ أرْتَقَيْنا[١] – ذاتَ يَوْمٍ – قِمَّةَ جَبَلٍ شاهِقٍ[٢] ، وكانَ الْجَوُّ صَحْوًا ؛ فَلاحَتِ[٣] الْقارَّةُ الْبَعِيدَةُ . وما أَنْعَمَ « جُمْعَةُ » نَظَرَهُ مُتَثَبِّتًا مِنْ رُؤْيَةِ وَطَنِهِ حَتَّى غَلَبَهُ السُّرُورُ عَلَى أمْرِهِ ؛ فَظَلَّ يَقْفِزُ مِنَ الْفَرَحِ ، وَيَصِيحُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ :

« وافَرْحَتاهُ ! واطَرَباهُ ! هاأنذا أَرَى بِلادِي ! هاأنذا أَرَى وطَنِي ! »

وامْتَلأَ وَجْهُهُ بِشْرًا وسُرُورًا ، وارْتَسَمَتْ عَلَى أسارِيرِهِ[٤] دَلائِلُ الْحَنِينِ والشَّوْقِ إلى وَطَنِهِ ، فَسَأَلْتُهُ :

« أتُحِبُّ أَنْ تَعُودَ إلى بِلادِكَ ؟ »

فَأَجابَنِي ، وهُوَ يَتَحَرَّقُ شَوْقًا :

« لَيْتَ هٰذِهِ الأُمْنِيَّةَ تَتَحَقَّقُ ، يا سَيِّدِي ! »

فَقُلْتُ لَهُ :

« وماذَا تَصْنَعُ فِى بِلادِكَ ؟ أتُحِبُّ أَنْ تَعُودَ إلى وَحْشِيَّتِكَ ، وتَرْتَدَّ

---

(١) صعدنا . (٢) عال . (٣) ظهرت . (٤) خطوط جبينه .

إِلَى طَبِيعَتِكَ الأُولَى ، فَتُصْبِحَ غُولًا تَأْكُلُ اللَّحْمَ الْبَشَرِيَّ ؟ »

فَقَالَ لِي ، فِي غَيْرِ تَرَدُّدٍ :

« كَلَّا ، كَلَّا . . فَإِنَّ « جُمْعَةَ » لَنْ يَعُودَ غُولًا كَمَا كَانَ ! وَسَوْفَ يَقُصُّ عَلَى قَوْمِهِ كَيْفَ أَصْبَحَ يَشْتَرِي الْخُبْزَ وَاللَّبَنَ وَلَحْمَ الْأَغْنَامِ ، وَمَا إِلَى ذٰلِكَ مِنْ لَذَائِذِ الطَّعَامِ . أَمَّا لَحْمُ الْإِنْسَانِ فَقَدْ أَصْبَحَ « جُمْعَةُ » يَعَافُهُ وَلَا يُطِيقُ أَنْ يُفَكِّرَ فِي اتِّخَاذِهِ طَعَامًا لَهُ . »

فَقُلْتُ لَهُ : « لَوْ عَرَفُوا مِنْكَ ذٰلِكَ لَأَكَلُوكَ ! »

فَقَالَ لِي : « كَلَّا ، لَا يَأْكُلُونَنِي ، بَلْ يَتَعَلَّمُونَ مِنِّي كَيْفَ يُنَظِّمُونَ حَيَاتَهُمْ ، وَكَيْفَ يَسْتَسِيغُونَ أَطْيَبَ الْأَطْعِمَةِ . »

فَسَأَلْتُهُ : « أَتُحِبُّ أَنْ تَعُودَ إِلَى بِلَادِكَ الْآنَ ؟ »

فَقَالَ لِي مُبْتَسِمًا :

« لَيْسَ فِي قُدْرَتِي أَنْ أَقْطَعَ هٰذِهِ الْمَسَافَةَ الطَّوِيلَةَ سِبَاحَةً . »

فَوَعَدْتُهُ بِإِعْدَادِ زَوْرَقٍ يُوَصِّلُهُ إِلَى وَطَنِهِ ؛ فَقَالَ لِي : « حَبَّذَا ذٰلِكَ لَوْ تَمَّ ، عَلَى أَنْ أَكُونَ رَفِيقَكَ فِي هٰذِهِ الرِّحْلَةِ . وَسَتَرَى كَيْفَ يَغْمُرُكَ أَهْلُ وَطَنِي بِالْحُبِّ ، وَلَنْ يُفَكِّرَ أَحَدٌ فِي أَنْ يَأْكُلَكَ ، وَلَا سِيَّمَا

إذا أَخْبَرْتُهُمْ بِأَنَّكَ أَنْقَذْتَ حَيَاتِى مِنَ الْهَلَاكِ . »

وَمَا زَالَ يُحَبِّبُ إِلَىَّ الذَّهَابَ مَعَهُ إِلَى وَطَنِهِ ، وَيَقُصُّ عَلَىَّ كَيْفَ أَكْرَمُوا جَمَاعَةَ الْبِيضِ الَّذِينَ وَصَلُوا إِلَيْهِمْ مُنْذُ زَمَنٍ طَوِيلٍ ، وَكَيْفَ أَنِسُوا بِهِمْ ، وَارْتَاحُوا إِلَى عِشْرَتِهِمْ ؛ حَتَّى أَجْمَعْتُ أَمْرِى[1] وَتَأَهَّبْتُ لِهَٰذِهِ الرِّحْلَةِ ؛ لَعَلِّى أَتَمَكَّنُ مِنَ الْعَوْدَةِ بَعْدَ ذَٰلِكَ إِلَى وَطَنِى .

١٠ — الْمَرْكَبُ الشِّرَاعِىُّ

وَاشْتَدَّتْ رَغْبَتِى فِى تَحْقِيقِ هَٰذَا الْحُلْمِ الْجَمِيلِ ، فَذَهَبْتُ مَعَ « جُمْعَةَ » إِلَى الْمَكَانِ الَّذِى وَضَعْتُ فِيهِ زَوْرَقِى ، ثُمَّ رَكِبْنَاهُ مَعًا ؛ فَرَأَيْتُ « جُمْعَةَ » أَمْهَرَ مِنِّى وَأَقْدَرَ عَلَى مُتَابَعَةِ السَّيْرِ وَمُضَاعَفَةِ السُّرْعَةِ .

فَقُلْتُ لَهُ : « أَفِى اسْتِطَاعَتِكَ الْآنَ أَنْ تَذْهَبَ إِلَى وَطَنِكَ ؟ »

فَقَالَ : « لَنْ يَحْتَمِلَ هَٰذَا الزَّوْرَقُ الصَّغِيرُ تِلْكَ الرِّحْلَةَ الطَّوِيلَةَ . »

فَقُلْتُ لَهُ : « عَلَيْنَا أَنْ نُعِدَّ زَوْرَقًا أَكْبَرَ مِنْهُ لِنَرْكَبَهُ إِلَى وَطَنِكَ . »

فَأَطْرَقَ بِرَأْسِهِ إِلَى الْأَرْضِ ، وَقَالَ لِى مُتَأَلِّمًا مَحْزُونًا :

---

(١) عزمت .

« ما الَّذى أغْضَبَ سَيِّدِى علىّ ؟ وَما بالُ سَيِّدِى يُحاوِلُ أنْ يُقْصِى[١] عنهُ خادِمَهُ جُمْعةَ ؟ »

فَقُلْتُ لهُ : « ألا تَتَمَنَّى أنْ تَعُودَ إلى وَطَنِكَ ؟ »

فَقالَ : « نعمْ ، نَعم ، أتَمَنَّى ذٰلك مِن صَمِيمِ قَلْبِى ، على أنْ أكونَ رَفيقَكَ فى الْعَوْدَةِ إلى بلادى . أمَّا أنْ أتْرُكَ صُحْبَتَكَ وَأعُودَ وَحْدى ، فَلا سبيلَ إلى ذٰلكَ . فليْسَ فى قُدْرَتى أنْ أحْتَمِلَ فِراقَكَ بَعْدَ أنِ امْتَلأَ قَلْبِى بِحُبِّكَ ، أيُّها السَّيِّدُ الْكَرِيمُ ، الَّذى غَمَرَنى بِعَطْفِه ، وطَوَّقَ عُنُقِى بِصَنائِعِه[٢] . » فَتَظاهَرْتُ بِالإصْرارِ[٣] لِأَخْتَبِرَ مَدَى حُبِّهِ إيَّاىَ .

فَلمَّا رَآنى جادًّا فى رَفْضِى ، غابَ عَنِّى قَليلًا ، ثُمَّ عادَ إلَىَّ وَفِى يَدِهِ قَدُومٌ ، وقالَ لى ، وَقَدْ تَمَلَّكَهُ الْيَأْسُ والْحُزْنُ :

« بِرَبِّكَ اقْتُلْنِى بِهٰذِهِ الْقَدُومِ ، وَأرِحْنِى مِنَ الْحَياةِ ، ما دُمْتَ مُصِرًّا على إرْسالِ « جُمْعةَ » إلَى قَوْمِهِ ! »

فَلمْ أتَرَدَّدْ فى إظْهارِ مُوافَقَتِى على السَّفَرِ مَعَهُ ، بَعْدَ أنْ بَلَوْتُ إخْلاصَهُ[٤] ، وَعَرَفْتُ مَدَى حُبِّهِ إيَّاىَ . وَوَعَدْتُهُ بِتَحْقِيقِ أُمْنِيَّتِه فى

(١) يبعد . (٢) بأفضاله الجميلة . (٣) العزم والثبات . (٤) عرفته .

مُرافقتِه إلى وَطنِه . ولَمْ نُضِعْ وَقتَنا عَبثًا ، بَعْدَ أنْ عَزَمْنا عَلَى الْقِيامِ بِهٰذِهِ الرِّحْلَةِ الطَّوِيلَةِ ؛ فَذَهَبْنا إلى شَجَرَةٍ عَظِيمَةٍ فَقطَعْناها . وَما زِلْنا دائِبَيْنِ[١] فى الْعَمَلِ حتَّى صَنَعْنا زَوْرَقًا كَبِيرًا فى خِلالِ شَهْرٍ كامِلٍ . وبَعْدَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا ، اُسْتَطَعْنا أَنْ نُنْزِلَ الزَّوْرَقَ فى الْبَحْرِ . وقَدْ تَكَبَّدْنا[٢] فى سَبيلِ ذٰلكَ عَناءً لا يُوصَفُ . ولَمْ يَمُرَّ عَلَيْنا شَهْرانِ بَعْدَ هٰذا ، حتَّى أتْمَمْنا صُنْعَ الشِّراعِ والسَّارِيَةِ ، كما أَنْجَزْنا صُنْعَ السُّكَّانِ[٣] وقَدْ بَذَلْتُ الْجُهْدَ فى تَدْرِيبِ « جُمْعةَ » على تَسْيِيرِ هٰذا الْمَرْكَبِ الشِّراعِيّ حتَّى حَذَقَهُ وَأَتْقَنَهُ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ بِمِثْلِ هٰذا الْمَرْكَبِ الشِّراعِيّ عَهْدٌ ، ولَمْ يَرَ لَهُ شَبِيهًا طُولَ عُمُرِهِ ؛ فَقَدْ كانَ قَوْمُهُ لا يَعْرِفونَ إلَّا الْجذْفَ وَحْدَهُ ؛ أَمَّا اُسْتِخْدامُ الشِّراعِ والسُّكَّانِ ، فَذٰلكَ ما لَمْ يَأْلَفُوهُ ، ولَمْ يَسْمَعُوا بِهِ . وقَدْ أَكْسبَتْهُ الْمَرانَةُ قُدْرةً عَجِيبَةً على تَسْيِيرِ مَرْكَبِنا الشِّراعِيِّ ، وأَصْبَحَ — بَعْدَ قَليلٍ مِنَ الزَّمَنِ — رُبَّانًا[٤] ماهِرًا .

وَهٰكَذا تَمَّ لَنا إِعْدادُ الْعُدَّةِ لِلسَّفَرِ إلَى وطَنِ « جُمْعَةَ » ، ولَمْ يُعْوِزْنا[٥] شَيْءٌ مِنَ الْمُعَدَّاتِ .

---

(١) مواظبين . (٢) قاسينا . (٣) الدفة . (٤) قائد سفينة . (٥) لم ينقصنا .

١١ — حَرْبُ الْأَعْداءِ

ومَضَتْ عَلَيَّ ثلاثُ سَنَواتٍ بَعْدَ ذٰلكَ . وقَدْ أصْبَحَتِ الْجَزِيرَةُ — حِينَئِذٍ — جَنَّةً نَضِرَةً[1] ، بَعْدَ أنْ كانَتْ مَنْفًى مُوحِشاً . فَقَدْ آنَسَنِي « جُمْعَةُ » بَعْدَ وَحْشَةٍ ، وتَغَلَّبَ إخْلاصُهُ وحُبُّهُ عَلَى كُلِّ عَقَبَةٍ اعْتَرَضَتْنا في حَياتِنا .

وجاءَ الْعامُ السّادِسُ والْعِشْرُونَ ، وأنا أتَرَقَّبُ الْخَلاصَ مِنْ هٰذِهِ الْجَزِيرَةِ . فَلَمّا أقْبَلَ الشِّتاءُ ، وضَعْنا الزَّوْرَقَ في مَكانٍ أمِينٍ ، حَتَّى انْقَضَى « نُوفَمْبِرُ » و « دِيسمبِرُ » . ثُمَّ أخَذْنا نُهَيِّئُ الْأسْبابَ ، ونَسْتَكْمِلُ مُعَدّاتِ السَّفَرِ إلَى وَطَنِ « جُمْعَةَ » .

وإنّا لَجادّانِ — في صَباحِ يَوْمٍ مِنَ الْأيّامِ ، وقَدْ خَرَجَ « جُمْعَةُ » لِصَيْدِ السَّلاحِفِ كَعادَتِهِ — إذْ عادَ إلَيَّ مُسْرِعاً ، وهُوَ يَرْتَجِفُ مِنْ شِدَّةِ الذُّعْرِ ، ويَصِيحُ خائِفاً : « يا لَلْهَوْلِ ، يا سَيِّدِي ! »

فَسَألْتُهُ : « أيَّ هَوْلٍ تَعْنِي ؟ »

فَقالَ : « ثَلاثَةُ زَوارِقَ تَدْنُو إلَيْنا ، قادِمَةً عَلَيْنا . »

---

(١) جميلة خضراء .

فَظَلِلْتُ أُطَمْئِنُهُ وأُسَرِّى عن نَفْسِهِ ، وهُوَ لا يَكادُ يُصْغِى لِما أَقُولُ ؛ فَقَدْ كانَ مُوقِنًا أَنَّ أَعْداءَهُ لَمْ يَعُودُوا إِلَى الْجَزِيرَةِ إِلَّا لِيَبْحَثُوا عَنْهُ ، ويُمَزِّقُوا جِسْمَهُ ، ويَشْوُوهُ عَلَى النَّارِ !

فَقُلْتُ لَهُ : « تَشَجَّعْ يا « جُمْعَةُ » ؛ فَلَنْ يُفِيدَكَ الْجَزَعُ شَيْئًا ، ولَنْ يُبْقِيَ الأَعْداءُ عَلَى أَحَدٍ مِنَّا إِذا ظَفِرُوا بِهِ . ولَيْسَ لَنا إِلَّا أَنْ نُوَطِّنَ نَفْسَيْنا(١) عَلَى قِتالِهِمْ . وسأَبْذُلُ نَفْسِى مِنْ أَجْلِكَ ، فَلا تُخالِفْ لِى أَمْرًا . وسَتَرَى كَيْفَ نَحْصُدُهُمْ(٢) بِرَصاصِنا حَصْدًا . »

وَما زِلْتُ بِهِ حَتَّى أَعَدْتُ إِلَيْهِ شَجاعَتَهُ ؛ فَبَنَى عَزْمَهُ على أَنْ يَسْتَبْسِلَ(٣) فى قِتالِهِمْ ، حَتَّى نَنْتَصِرَ عَلَيْهِمْ أَوْ نَمُوتَ كَرِيمَيْنِ .

---

(١) نقويهما . (٢) نهلكهم . (٣) يعرض نفسه للموت

وَتأَهَّبْنا لِمُحارَبَتِهِمْ ، فارْتقَيتُ قِمَّةَ الْجَبَلِ ؛ فَرَأَيْتُ — مِنْ خِلالِ مِنْظارِى — واحِدًا وَعِشْرِينَ رَجُلًا جالِسِينَ حَوْلَ النَّارِ . فَنَزَلْتُ إلى سَفْحِ الْجَبَلِ[1] ، وَأَرْسَلْتُ « جُمْعَةَ » لِيَتَعَرَّفَ ما يَصْنَعُونَهُ ؛ فَعادَ إلَيَّ — بعْدَ قَليلٍ — وَأَخْبَرَنِى أَنَّهُمْ يَشْوُونَ أَحَدَ الأَسْرَى على النَّارِ



لِيأْكُلُوا لَحْمَهُ . فَذَهَبْتُ إلى الْغابَةِ وَمَعِى « جُمْعَةُ » ، واخْتَفَيْنا بَيْنَ أَشْجارِها الْكَثِيفَةِ ، حتّى أَصْبَحْنا على مسافَةٍ قَرِيبَةٍ مِنَ الأَعْداءِ ؛

(١) أسفله

فَرَأَيْنا رَجُلًا أَبْيَضَ الْوَجْهِ ، مُلْتَحِياً ، مَشْدُودَ الْوِثَاقِ ، مَطْرُوحاً على الرَّمْلِ فَصَبَرْتُ عَلَيْهِمْ ، حتَّى إذا شَرَعُوا فى حَلِّ وَثاقِهِ ، أَمَرْتُ « جُمْعَةَ » أَنْ يُطْلِقَ الرَّصاصَ مَعِى فى وَقْتٍ واحِدٍ . وكانَتْ مُفاجَأَةً عَجِيبَةً ؛ فَقَدْ قَتَلَ « جُمْعَـــةُ » -- وَحْدَهُ — اثْنَيْنِ مِنْهُمْ وَجَرَحَ ثَلاثَةً ، وَقَتَلْتُ رَجُلًا واحِدًا وَجَرَحْتُ اثْنَيْنِ



وَما سَمِعَ الْأَعْداءُ دَوِيَّ الرَّصاصِ ، وَرَأَوْا ما حَلَّ بِأَصْحابِهِمْ مِنَ الْهلاكِ وَالأَذَى ، حتّى تَمَلَّكَهُمُ الْخَوْفُ ، واسْـــتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الذُّعْرُ ؛ فَلاذُوا بِالْفِرارِ[1] ، وَهُمْ لا يَكادُونَ يُصَدِّقُونَ بالنَّجاةِ . وَرَكِبُوا زَوْرَقَيْنِ لِيَهْرُبُوا إِلَى بِلادِهِمْ مِنْ هٰذِهِ الصَّواعِقِ الَّتى لَمْ يَرَوْا لَها ، فِى حَياتِهِمْ ، مَثِيلًا . فاقْتَرَبْتُ مِنَ الرَّجُلِ الْأَبْيَضِ وَحَيَّيْتُهُ ؛ فَوَجَدْتُهُ

---

(١) لجأوا إلى الهرب .

أقْرَبَ إلى الْمَوْتِ مِنْهُ إلى الْحَياةِ. فَفَكَكْتُ وَثاقَهُ ، وَسَقَيْتُهُ وَأطْعمتُه ، حتَّى عادَ إلَيْهِ رُشْدُهُ ، وَأفاقَ مِنْ إغْماءَتِهِ ؛ فَشَكَرَ لِي صَنِيعِي أحْسَنَ الشُّكْرِ . وَقَدْ عَلِمْتُ أنَّهُ إسْبانِيُّ الأَصْلِ ، وَأنَّ سُوءَ حَظِّهِ أوْقَعَهُ أسِيرًا في تِلْكَ الْبِلادِ .

١٢ — أبو « جُمْعَةَ »

وَرَأَى « جُمْعَةُ » زَوْرَقًا تَرَكَهُ الأعداءُ ؛ فاقْتَرَحَ عَلَيَّ أنْ نَرْكَبَهُ لِنُطارِدَهُمْ وَنَمْلأَ قُلُوبَهُمْ رُعْبًا وَهَلَعًا . فَأَعْجَبَنِي اقْتِراحُهُ ، وَما وَصَلْنا إلى الزَّوْرَقِ ، حتَّى رَأَيْنا فِيهِ أسِيرًا ثالِثًا . فَفَكَكْتُ وَثاقَهُ ، وَحاوَلْتُ أنْ أُنْهِضَهُ عَلَى قَدَمَيْهِ ؛ فَوَجَدْتُهُ لا يَتَماسَكُ ، مِنْ شِدَّةِ الضَّعْفِ وَالْخَوْفِ .



وَلَمْ يَرَ « جُمْعةُ » هٰذا الأَسِيرَ حتَّى ارْتَمَى عَلَيْهِ يُقَبِّلُهُ وَيُعانِقُهُ ، وَقَدْ أذْهَلَهُ الْفَرَحُ حتَّى كادَ يُسْلِمُهُ إلى الْجُنُونِ . فَظَلَّ يَبْكِي وَيَضْحَكُ وَيَقْفِزُ وَيَرْقُصُ

وَيفْرُكُ يَدَيْهِ ، وَيَعضُّ أَنامِلَهُ ، وَيَلْطِمُ وَجْهَهُ ، وَيُغَنِّي ، وَأَنا أُحاوِلُ أَنْ أَسْتَوْضِحَهُ سِرَّ هٰذا الْخَبالِ[1] ، وَهُوَ لا يُصْغِي إِلَيَّ . ثُمَّ هَدَأَ قَلِيلًا ، وَالْتَفَتَ إِلَيَّ قائِلًا : « اِعْلَمْ أَنَّ هٰذا الْأَسِيرَ هُوَ أَبِي . وَقَدْ أَنْقَذَهُ اللهُ عَلَى يَدَيْكَ .



فَكَيْفَ لا يَتَمَلَّكُنِي الْفَرَحُ وَالطَّرَبُ ! »

فَتَرَكْتُهُ فِي فَرَحِهِ ، وَأُعْجِبْتُ بِهٰذا الْحُبِّ الْبَنَوِيِّ . وَقَدْ أَقْبَلَ « جُمْعَةُ » عَلى أَبِيهِ يُدْفِئُهُ وَيَتَعَهَّدُهُ — فِي حُنُوِّ الْوَلَدِ الشَّفِيقِ الْبارِّ — وَيَفْرُكُ لَهُ ساقَيْهِ اللَّتَيْنِ أَضَرَّ بِهِما الْوِثاقُ ، وَيَسْقِيهِ تارَةً ، وَيُطْعِمُهُ تارَةً أُخْرَى ، حَتَّى أَعادَ إِلَيْهِ قُواهُ .

فَأَمَرْتُ « جُمْعَةَ » أَنْ يُعْنَى[2] بِالرَّجُلِ الْإِسْبانِيِّ — كَما عُنِيَ بِأَبِيهِ — فَلَمْ

(١) الجنون . (٢) يهتم .



يَتَرَدَّدْ فى إطاعَةِ أَمْرِى .

ثُمَّ حَمَلْنا الْإِسْبانِىَّ وَأَبَا « جُمْعَةَ » على لَوْحٍ مِنَ الْخَشَبِ ، لِعَجْزِهِما عَنِ السَّيْرِ ، حتَّى وَضَعْناهُما فِى خَيْمَةٍ أَقَمْناها بِالْقُرْبِ مِنَ الْحِصْنِ ، وَأَعْدَدْنا لِكُلٍّ مِنْهُما فِراشًا مِنَ الْقَشِّ . وَكانَ « جُمعةُ » خَيْرَ تَرْجُمانٍ يَنْقُلُ لِى مايَقُولُهُ أَبُوهُ وَالْإِسْبانِىُّ الَّذِى أَتْقَنَ لُغَةَ أَعْدائِهِ ، لِطُولِ عِشْرَتِهِ وَإِقامَتِهِ بَيْنَ ظَهْرانَيْهِمْ(١) .

ثُمَّ أَمَرْتُ « جُمْعَةَ » أَنْ يَدْفِنَ الْقَتْلَى ، حتَّى لا تَفْسُدَ جُثَثُهُمْ ، فَتُحْدِثَ رائِحَتُها الْأَمْراضَ الْخَبِيثَةَ ؛ فَقامَ بِهٰذا الْعَمَلِ خَيْرَ قِيامٍ ،

(١) معهم .

١٣ — بَعْدَ فِرارِ الأَعْداء

وَقضَيْنا زَمَناً طَويلًا ، وَنَحْنُ نَتَعاوَنُ عَلى زَرْعِ الأَرْضِ ، وَتَوْفِيرِ أَسْبابِ الرَّاحَةِ وَالرَّخاءِ ، وَيأْتَنِسُ بَعْضُنا بِبَعْضٍ . وَسُرْعانَ ما تَمَّتِ الأُلْفَةُ بَيْنَنا جَمِيعاً ، وَأَصْبَحْنا أَصْفِياءَ مُتَحابِّينَ .

وَقَدْ سَأَلْتُ أَبا « جُمْعَةَ » ، ذاتَ يَوْمٍ : « أَتُرانا[1] فِي خَطَرٍ مِنْ غارةِ أَعْدائِنـــا ، مَرَّةً أُخرى ؟ » فقالَ لِي ، فِي لَهْجَةِ الحـــازِمِ المُسْتَيْقِنِ[2] : « كَلَّا ، لا سَبيلَ إِلَى عَوْدَتِهِمْ بَعْدَ هٰذِهِ النَّكْبَةِ . وَما أَحْسَبُهُمْ قَدْ نَجَوْا مِنَ



العاصِفَةِ الَّتِي هَبَّتْ عَلَيْهِمْ ، فِي أَثْناءِ فِرارِهِمْ . وَلَوْ أَنَّهُمْ نَجَوْا مِنْها ، لَما وَجَدُوا مِنَ الشَّجاعَةِ ما يَحْفِزُهُمْ[3] إِلَى مُعـــاوَدَةِ الكَرَّةِ ؛

(١) أتحسبنا . (٢) المتثبت . (٣) يدفعهم .

فقَدْ أطارَ دَوِىُّ الرَّصاصِ عُقُولَهُمْ . وَسَيَقُصُّونَ على أَهْلِيهِمْ وَأَصْحابِهِمْ ما رَأَوْهُ مِنَ الصَّواعِقِ وَالرُّعُودِ الَّتِي أَفْنَتْ جَماعَةً مِنْ رِفاقِهِمْ . وَلَقَدْ سَمِعْتُ بَعْضَهُمْ يَتَحَدَّثُ — فِي أَثْناءِ فِرارِهِ — وَهُوَ مَذْهُوشٌ مِمَّا رَأَى ، وَقَدْ مَلَأَتْهُ الْحَيْرَةُ وَالْعَجَبُ ؛ فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَهْتَدِيَ إِلى تَعْلِيلٍ يُفَسِّرُ بِهِ قُدْرَةَ أَعْدائِهِ عَلَى قَذْفِهِمْ بِالصَّواعِقِ ، وَتَسْخِيرِ الرُّعُودِ وَالْفَلَكِ[1] لِلْفَتْكِ بِمَنْ يُرِيدُونَ ، عَلَى مَسافَةٍ بَعِيدَةٍ ، دُونَ عَناءٍ . »

وَقَدْ صَدَقَ الشَّيْخُ فِى تَكَهُّنِهِ وَحَدْسِهِ[2] ؛ فَقَدْ عَلِمْتُ — فِيما بَعْدُ — أَنَّ أَعْداءَنا قَدْ أَذاعُوا عَلَى بَنِي وَطَنِهِمْ — بَعْدَ أَنْ نَجَوْا مِنَ الْغَرَقِ — أَنْباءَ الصَّواعِقِ الَّتِي أَمْطَرْناها عَلَيْهِمْ ؛ فَمُلِئُوا قُلُوبُهُمْ رُعْبًا ، وَأَيْقَنُوا أَنَّ هٰذِهِ الْجَزِيرَةَ مَمْلُوءَةٌ جِنًّا وَعَفارِيتَ ، فَلَمْ يَجْرُءُوا عَلَى الدُّنُوِّ مِنْها بَعْدَ ذٰلِكَ الْيَوْمِ . عَلَى أَنَّنِي تَأَهَّبْتُ لِنِضالِهِمْ[3] ، وَتَرَقَّبْتُ عَوْدَتَهُمْ زَمَنًا طَوِيلًا ، حَتَّى اقْتَنَعْتُ بِأَنَّهُمْ يَئِسُوا مِنَ الْعَوْدَةِ . فَاطْمَأَنَّتْ نَفْسِي ، وَانْصَرَفْتُ إِلَى التَّفْكِيرِ فِي الْعَوْدَةِ إِلَى وَطَنِي . وَمَرَّتْ بِنا سِنُونَ عِدَّةٌ ، وَنَحْنُ آمِنُونَ وادِعُونَ فِي تِلْكَ الْجَزِيرَةِ الْعازِبَةِ[4] . وَقَدْ سَهُلَ عَلَيْنا أَنْ

---

(١) استخدامهما وقهرهما . (٢) ظنّه وتقديره . (٣) محاربتهم . (٤) البعيدة .

نُنجِزَ[١] — مُتَعاوِنِينَ — كُلَّ ما نَحْتاجُ إِلَيْهِ .

وقَدْ عَلِمْتُ مِنَ الْإِسْبانِيِّ أَنَّ عَدَدَ أَصْدِقائِهِ — مِنَ الْإِسْبانِيِّينَ الَّذِينَ نَجَوْا مِنَ الْغَرَقِ — يَبْلُغُ سِتَّةَ عَشَرَ ، ولَدَيْهِمْ كَثِيرٌ مِنَ الْبُنْدُقِيّاتِ والْمُسَدَّساتِ ، ولَيْسَ يُعوزُهُمْ[٢] إِلّا الرَّصاصُ والْبارُودُ . وقَدْ حاوَلُوا الْعَوْدَةَ إِلَى بِلادِهِمْ ؛ فَأَعْوَزَتْهُمُ الْمُعَدّاتُ ، فَأَقامُوا فِي تِلْكَ الْبِلادِ مُرْغَمِينَ[٣] . فَسَأَلْتُهُ : « أَتُراهُمْ يُلَبُّونَ[٤] اقْتِراحِي ، إِذا هَيَّأْتُ لَهُمْ أَسْبابَ السَّفَرِ ؟ »

فَقالَ لِي : « لَيْسَ أَشْهَى إِلَى نُفُوسِهِمْ مِنْ تَحْقِيقِ هٰذِهِ الْأُمْنِيَّةِ . »

وَاقْتَرَحَ عَلَيَّ أَنْ يَذْهَبَ مَعَ أَبِي « جُمْعَةَ » لِمُقابَلَتِهِمْ ؛ فَأَذِنْتُ لَهُ فِي ذٰلِكَ ، بَعْدَ أَنْ أَقْسَمَ لِي : إِنَّهُ سَيَكُونُ — هُوَ وَرِفاقُهُ — رَهْنَ إِشارَتِي ، وَسَيَأْخُذُ عَلَيْهِمُ الْعَهْدَ بِالْوَفاءِ لِي ، قَبْلَ أَنْ يُحْضِرَهُمْ إِلَى جَزِيرَتِي . وَبَعْدَ زَمَنٍ قَلِيلٍ ، رَكِبَ الْإِسْبانِيُّ وَالشَّيْخُ زَوْرَقَ الْأَعْداءِ بَعْدَ أَنْ زَوَّدْتُهُما بِكُلِّ ما يَحْتاجانِ إِلَيْهِ ، مِنْ طَعامٍ وَسِلاحٍ ، وَرَجَوْتُ لَهُما سَفَرًا سَعِيدًا وَعَوْدًا حَمِيدًا .

---

(١) نتم . (٢) لا ينقصهم . (٣) مكرهين . (٤) ينفذون .

الفصل الثامن

العَوْدَةُ إلَى الوَطَن

١ — الْمُفاجَأَةُ

ظَلِلتُ أتَرَقّبُ عَوْدَةَ الشَّيْخِ وَالإسْبانِىِّ ثَمانِيَةَ أيّامٍ . ثمَّ وَقَعَ لِى حادِثٌ لَمْ يَكُنْ لِيَخطُرَ لى على بالٍ . فقَدِ اسْتَيْقَظْتُ مِن نَوْمِى على صُراخِ « جُمْعَةَ » ، وهُوَ يَصِيحُ ويُنادِى بِأَعْلَى صَوْتِه .

« سَيِّدِى ! سَيِّدِى ! لقَدِ اقْتَرَبُوا مِنّا . »

فارْتَدَيْتُ ثِيابِى — مِن فَوْرِى — وَأَسْرَعْتُ نَحْوَ الشّاطِئِ . وَأجلْتُ لِحاظِى فى عُرْضِ الْبَحْرِ ، فَرَأَيْتُ زَوْرَقًا شِراعِيًّا مُيَمِّمًا[1] جَزِيرَتَنا ؛ وهُو عَلَى بُعْدِ مِيلٍ ونِصْفِ ميلٍ منها . فَأَمَرْتُ « جُمْعَةَ » أنْ يَتَرَيَّثَ[2] فى الأَمْرِ ، حتّى نَتَعَرَّفَ جَلِيَّتَهُ[3] . وَأكّدْتُ لهُ أنَّ راكِبِى الزَّوْرَقِ لَيْسُوا أصْحابَنا الّذِينَ أرْسَلْنا أباهُ والإسْبانِىَّ لِإحْضارِهِمْ ،

(١) قاصداً . (٢) يتمهل . (٣) حقيقته .

وليسَ فى قُدْرَتِنا أنْ نَعرِفَ : أأعْداءٌ لَنا أمْ أصْدقاءُ ؟

ثمَّ ارْتَقَيتُ[1] قِمَّةَ الجبَلِ ، وَرَأيْتُ — مِنْ خِلالِ مِنْظارِى — سَفينَةً واقِفَةً على مَسافةِ مِيلَيْنِ ونِصْفِ مِيلٍ تقريباً . وقدْ عَرَفْتُ — منْ أسْلوبِ بِنائِها — أنها سَفينَةٌ مِن سُفُنِ بِلادِنا ؛ فَأيْقَنْتُ أنَّ خَلاصِى مِنَ الأسْرِ قَرِيبٌ ، وَفاضَ قَلْبى بِشْرًا وَسُرُورًا . وَلٰكِنَّنِى شَعَرْتُ — فى نَفسِى — بِشَىْءٍ مِنَ الانقِباضِ يُنَغِّصُ علَىَّ هٰذا الفَرَحَ . فقَدْ تَوَجَّسْتُ[2] شرًّا ؛ لِأنَّنِى لَمْ أستَطِعْ أنْ أُعَلِّلَ اقْتِرابَ مثلِ هٰذهِ السَّفينَةِ منْ تِلْكَ الجَزِيرَةِ النَّائِيَةِ ، عَلَى غَيْرِ حاجَةٍ إلَى المُرُورِ بِها . ورأيْتُ — منَ الحَزامَةِ[3] وَأصالَةِ الرَّأْيِ — أنْ أتَرَيَّثَ ؛ حتَّى أتبَيَّنَ الحَقِيقَةَ واضِحةً ، لا لَبْسَ فِيها ولا غُمُوضَ .

٢ — شَكوَى الرُّبَّانِ

ولَمَّا رَسا الزَّوْرَقُ عَدَدْتُ راكِبيهِ ؛ فَرأيتُهُمْ أحدَ عَشَرَ مِنْ بَنِى

---

(١) صعدت . (٢) أحسست . (٣) الحكمة .

وَطَنِى ، ورَأَيْتُ — مِنْ بَيْنِهِمْ — ثلاثةً مَشْدُودِى الوَثاقِ . ثُمَّ قفزَ خَمْسَةُ رِجالٍ إلى الشَّاطِئِ يَقُودُونَ أَسْراهُمْ بِالْحِبالِ ؛ فلمْ أفهَمْ شَيْئًا ، ولَمْ أهْتَدِ إلى حَلِّ هٰذا اللُّغْزِ الْغامِضِ .

فَقالَ لِى خادِمِى « جُمْعَةُ » :

« لا شَكَّ فى أنَّهُمْ سَيَأْكُلونَ أسْراهُمْ كما يَفْعَلُ بَنُو وَطَنِنا . »

فَأَكَّدْتُ لهُ أنَّ هٰــذا لَنْ يكونَ ، وَلَنْ يَتَعَدَّى انْتِقامُهُمْ مِنْ أَسْراهُمْ أنْ يَقْتُلوهُمْ ؛ أمّا أنْ يَأْكُلوهُمْ فَذٰلِكَ ما لا يَدُورُ لَهُمْ بِخَلَدٍ[١].

وبَعْدَ قَليــلٍ تَرَكُوا الأَسْرَى فى مَكانِهِمْ ، ثُمَّ ذَهَبُوا يَجُوبُونَ الجَزِيرَةَ[٢] مُتَنَزِّهِينَ ، حتَّى السَّاعةِ الثَّانِيَــةِ بَعْدَ الظُّهْرِ . فوَقَفُوا يَسْتَرِيحُونَ تَحْتَ أشْجارِ الْغابَةِ ، بَعْدَ أنِ اشْتَدَّتْ حمارَّةُ الْقَيْظِ ، وَجَهَدَهُمُ[٣] الحَرُّ ؛ فانْطَرَحُوا عَلَى الأَرْضِ ، وَاسْتَسْلَمُوا لِلنَّوْمِ .

فَدَنَوْتُ مِنَ الأَسْرَى ، وَسَأَلْتُهُمْ عَنْ مَصْدَرِ شَقائِهِمْ ؛ فارْتَعَدَتْ فَرائِصُهُمْ[٤] مِنْ رُؤْيَتِى . وَلٰــكِنَّنِى طَمْأَنْتُهُمْ حَتَّى سُرِّىَ عَنْهُمْ[٥] ، ورَأَوْا أَمَلًا كَبِيرًا فِى خَلاصِهِمْ .

وَقَدْ قالَ لِى أَحَدُهُمْ ، وَقَدْ شَرِقَتْ[٦] عَيْناهُ بِالدُّمُوعِ :

(١) لا يمر بعقلهم . (٢) يجولون فيها . (٣) أتعبهم . (٤) فزعوا .
(٥) ذهب خوفهم . (٦) امتلأت .

« أنا رُبَّانُ السَّفِينَةِ الَّتِي تُقِلُّ هٰؤُلاءِ ٱلْمَلَّاحِينَ . وَقَدْ ثارَ عَلَيَّ رِجالِي وَتَمَرَّدُوا ، وَعَزَمُوا عَلَى أَنْ يَتْرُكُونِي فِي هٰذِهِ الْجَزِيرَةِ ٱلْعازِبَةِ ٱلْمُقْفِرَةِ، مَعَ هٰذَيْنِ الرَّفِيقَيْنِ اللَّذَيْنِ أَبَيا[1] أَنْ يَشْرَكاهُمْ فِي تَمَرُّدِهِمْ وَعِصْيانِهِمْ . »

٣ — النَّصْرُ

فَسَأَلْتُهُ : « أَتُعاهِدُنِي عَلَى أَنْ تُقِلَّنِي وَصاحِبِي « جُمْعَةَ » فِي سَفِينَتِكَ ، إِذَا أَنْقَذْتُكَ مِنْ هٰذِهِ الْوَرْطَةِ[2] ؟ »

فَقال : « لَوْ تَمَّ ذٰلِكَ ، لَأَصْبَحْتُ رَهْنَ إِشارَتِكَ . »

فَرَسَمْنا خُطَّةً بارِعَةً لِلْقَبْضِ عَلَى ٱلْعُصاةِ ، وَالِاسْتِيلاءِ عَلَى زَوْرَقِهِمْ . وَقَدْ فاجَأْناهُمْ وَهُمْ نائِمُونَ ، وَأَوْهَمْتُهُمْ أَنَّ لَدَيَّ جَيْشًا كَبِيرًا ؛ فَاضْطُرَّ أَكْثَرُهُمْ إِلَى الْإِذْعانِ[3] ، وَعاهَدُونا عَلَى ٱلْإِخْلاصِ .

ثُمَّ ذَهَبَ ٱلرُّبَّانُ و « جُمْعَةُ » وَرِفاقُهُ إِلَى السَّفِينَةِ ، وَأَسَرُوا وَكِيلَ الرُّبَّانِ وَمَنْ أَلْهَبَ مَعَهُ نارَ ٱلْفِتْنَةِ ، وَأَطْلَقُوا سَبْعَ طَلَقاتٍ مِنْ

(١) امتنعا . (٢) إذا خلصتك من هذا المكان الذى يعرضك للهلاك . (٣) التسليم .

مِدْفعِ ٱلسَّفِينَةِ إعْلانًا لِانْتِصارِهِمْ . فَلَمْ أَعُدْ أَتَمالَكُ مِنَ ٱلْفَرَحِ ، وَلَمْ أَكَدْ أُصَدِّقُ ما أَرَى ؛ فارْتَمَيْتُ عَلى فِراشِي ، وَٱسْتَسْلَمْتُ لِنَوْمٍ عَمِيقٍ .



ثُمَّ جاءَ ٱلرُّبَّانُ وَعانَقَنِي ، وَقالَ لِي : « إِنَّ السَّفِينَةَ وَرُبَّانَهـا وَمَلَّاحِيها لَيْسُوا إِلَّا مِلْكَ يَدَيْكَ وَطَوْعَ إِشارَتِكَ . » فأَيْقَنْتُ — حِينَئِذٍ — بِالْخَلاصِ ، وغَلَبَنِي السُّرُورُ عَلى أَمْرِي ؛ فَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَنْبِسَ(١) بِكَلِمَةٍ واحِدَةٍ .

ثُمَّ أَفَقْتُ مِنْ ذُهُولِي وَدَهْشَتِي ، فَأَقْبَلْتُ عَلَى ٱلرُّبَّانِ أُعانِقُهُ وأَشْكُرُ لَهُ أَحْسَنَ ٱلشُّكْرِ . وقَدْ أَحْضَرَ لِيَ ٱلرُّبَّانُ هَدايا فاخِرَةً ، وأَطْعِمَةً لَذِيذَةً ، وثِيابًا جَمِيلَةً ، وَما إِلَى ذٰلِكَ مِنَ التُّحَفِ والطُّرَفِ(٢) .

---

(١) أنطق . (٢) الأشياء الغريبة الثمينة .

٤ — مُعَدَّاتُ السَّفَرِ

وَلَمْ يَبْقَ عَلَيْنا إِلَّا أَنْ نَتَأَهَّبَ لِلسَّفَرِ . وَقَدِ اسْتَقَرَّ رَأْيُنا على تَرْكِ زُعَماءِ الثَّوْرَةِ مِنَ الْمَلَّاحِينَ فِي تِلْكَ الْجَزِيرَةِ ؛ حَتَّى لا يُفْسِدُوا عَلَيْنا أَمْرَنا . وَقَدْ شَرَحْتُ لَهُمْ وَسائِلَ الْعَيْشِ وَأَساليبَ الْحَياةِ فى تِلْكَ الْبِقاعِ[1] ، وَعَلَّمْتُهُمْ كَيْفَ يَصْنَعُونَ الْخُبْزَ ، وكَيْفَ يَبْذُرُونَ وَيَحْصُدُونَ ، وَكَيْفَ يُجَفِّفُونَ الْعِنَبَ ، وَما إلى ذٰلِكَ مِنَ الضَّرُورِيَّاتِ . ثُمَّ ذَكَرْتُ لَهُمْ أَنَّ سِتَّةَ عَشَرَ إِسْبانِيًّا قادِمُونَ عَلَيْهِمْ — بَعْدَ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ — وَتَرَكْتُ مَعَهُمْ كِتابًا إِلَيْهِمْ أُوصِيهِمْ بِهِمْ خَيْرًا . وَأَخَذْتُ عَلَيْهِمُ الْمَواثِيقَ والْعُهُودَ أَنْ يَعِيشُوا جَمِيعاً مُتَعاوِنِينَ مُتَحابِّينَ .

وَتَرَكْتُ لَهُمْ ما كانَ لَدَىَّ مِنْ سِلاحٍ ، وَهُوَ خَمْسَةُ مُسَدَّساتٍ ، وَثلاثُ بُنْدُقِيَّاتٍ ، وَثلاثَةُ سُيُوفٍ ، كما تَرَكْتُ لَهُمْ كُلَّ ما بَقِيَ عِنْدِى مِنَ الْبارُودِ والرَّصاصِ . وَشَرَحْتُ لَهُمْ : كَيْفَ يَتَعَهَّدُونَ الْمِعْزَى ؟ وَكَيْفَ يَحْلُبُونَ لَبَنَها ؟ وَكَيْفَ يَصْنَعُونَ مِنْهُ الزُّبْدَ وَالْجُبْنَ ؟

---

(١) الأراضى .

٥ — فِي أَرْضِ ٱلْوَطَنِ

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي ، وَدَّعْتُ هٰذِهِ ٱلْمَمْلَكَةَ النَّائِيَةَ ، وَأَخَذْتُ مَعِي قَلَنْسُوَتِي — وَهِيَ مِنْ جِلْدِ ماعِزٍ ، كَما عَلِمَ القارِئُ — ومِظَلَّتِي وَبَبَّغائِي.



وَأَخَذْتُ ما كانَ عِنْدِي مِنَ النُّقُودِ ، وقَدْ عَلاها الصَّدَأُ لِطُولِ ٱحْتِجابِها فِي أَثْناءِ هٰذِهِ الأَعْوامِ.

ثُمَّ أَقْلَعَتْ بِنا السَّفِينَةُ فِي التَّاسِعَ عَشَرَ مِنْ « دِيسِمْبِرَ » عامَ ١٦٨٦ م بَعْدَ أَنْ لَبِثْتُ فِي هٰذِهِ الْجَزِيرَةِ ثَمانِيَةً

وعِشْرِينَ عامًا وشَهْرَيْنِ وتِسْعَةَ عَشَرَ يَوْمًا . وقَدْ فَرِحَ « جُمْعَةُ » بِمُرَافَقَتِي إِلَى بِلادِي ، وآثَرَ صُحْبَتِي(١) على كُلِّ شَيْءٍ .

ومِنْ عَجِيبِ الْمُصادَفاتِ أَنَّ يَوْمَ خَلاصِي مِنْ هٰذِهِ الْجَزِيرَةِ وا يَوْمَ خَلاصِي مِنَ الأَسْرِ فى رِحْلَتِيَ السَّابِقَةِ ، الَّتِي عَرَفَها الْقارِئُ الْعَزِ

وَفِي الْيَومِ الْحادِي والْعِشْرِين مِنْ شَهْرِ « يُنْيَةَ » عامَ ١٦٨٧م وَصَلْ إلى « لَنْدَنَ » بَعْدَ أَنْ غِبْتُ عَنْها خَمْسَةً وثَلاثِينَ عامًا .

٦ — السَّفَرُ إِلَى « لِشْبُونَةَ »

وَرَأَيْتُنِي غَرِيبًا فى بِلادِي ، وَوَجَدْتُ والِدَيَّ قدْ ماتا مُنْذُ زَمَ طَوِيلٍ ، وَلَمْ أَجِدْ أَحَدًا يَعْرِفُنِي مِنْ رِفاقِيَ الْقُدَماءِ ؛ فَعَزَمْتُ عَلَى السَّفَ إِلَى « لِشْبُونَةَ » ، لِأَتَعَرَّفَ وَسِيلَةً إِلَى الاِسْتِفْسارِ عَمَّا آلَتْ إِلَيْ دَسْكَرَتِي(٢) ، فى « الْبَرَازِيلِ » . وقَدْ عَجَّلْتُ بِالسَّفَرِ إِلَى « لِشْبُونَةَ » — وَمَعِي « جُمْعَةُ » — فَبَلَغْناها فِي « أَبْرِيلَ » .

وعَثَرْتُ — لِحُسْنِ حَظِّي — على رُبَّانِ السَّفِينَةِ الَّذِي أَنْقَذَنِي فِي رِحْلَتِي الْأُولَى حِينَ فَرَرْتُ مِنَ الْأَسْرِ ، وكانَ قَدْ شاخَ وَتَرَكَ سَفِينَتَهُ لِوَلَدِ

---

(١) اختار أن يلازمني . (٢) قريتي .

فذَكَّرْتُهُ بقِصَّتِى ، وَسَأَلْتُهُ عَنْ دَسْكَرَتِى فِى « الْبَرازِيلِ » : فَأَخْبَرَنِى أَنَّهُ لَمْ يَذْهَبْ إِلَيْها مُنْذُ تِسْعِ سَنَواتٍ ، وَأَنَّهُ لَمْ يَأْلُ جُهْدًا فِى إِرْسالِ الرُّسُلِ إِلَى شُرَكائِى ، حَتَّى ظَفِرَ — بَعْدَ بِضْعَةِ أَشْهُرٍ — بِنَصِيبِى مِنَ الْمالِ وَالْبَضائِعِ ؛ فَأَرْبَتْ[1] ثَرْوَتِى على خَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْجُنَيْهاتِ .

وَقدْ ضَمِنْتُ بِذٰلِكَ رِبْحًا سَنَوِيًّا — مِنْ ضَيْعَتِى بِالْبَرازِيلِ — لا يَقِلُّ عَنْ أَلْفِ جُنَيْهٍ ؛ فَأَجْزَلْتُ مُكافَأَةَ الرُّبَّانِ المُحْسِنِ ، اعْتِرافًا بِفَضْلِهِ عَلَيَّ ، وَصَنِيعِهِ الَّذِى أَسْلَفَهُ إِلَيَّ .

وَبَقِيتُ عِدَّةَ أَشْهُرٍ حائِرًا مُضْطَرِبًا ، لا أَدْرِى : إِلَى أَىِّ بَلَدٍ أَقْصِدُ ؟ ثُمَّ اسْتَقَرَّ عَزْمِى عَلَى السَّفَرِ إِلَى « إِنجِلْتِرا » .

---

(١) زادت .

أَهوالُ البرِّ

١ — السَّفَرُ إِلَى « مَدْرِيدَ »

وَبَقِيتُ مُتَرَدِّدًا فِي الطَّرِيقِ الَّتِي أَتَخَيَّرُ سُلُوكَها ، وَشَعَرْتُ بِخَوْفٍ شَدِيدٍ مِنْ رُكُوبِ الْبَحْرِ ، بَعْدَ ما لَقِيتُهُ مِنَ الْأَخْطارِ وَالْمَتاعِبِ . وَقَدْ خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّ السَّفَرَ فِي الْبَرِّ آمَنُ مِنْهُ فِي الْبَحْرِ ؛ فَعَزَمْتُ على السَّفَرِ إِلَى « مَدْرِيدَ » ، بِحَيْثُ أَجْتازُ طريقَ الْبَرِّ إلى « فَرَنْسا » ، ثُمَّ لا يَبْقَى عَلَيَّ إِلَّا مَسافَةٌ قَصِيرَةٌ أَعْبُرُها — فِي الْبَحْرِ — بَيْنَ « كاليه » و « دُوفَرَ » .

وَقَدْ وُفِّقْتُ إِلَى رِفاقٍ يَصْحَبُونَنِي فى هٰذِهِ الرِّحْلَةِ الطَّوِيلَةِ — وَكانَ عَدَدُهُمْ سِتَّةً مِنَ السّادَةِ ، وَخَمْسَةً مِنَ الْخَدَمِ — حَتَّى وَصَلْنا إِلَى « مَدْرِيدَ » .

٢ — الذِّئبانِ

وَقَدِ اُضْطُرِرْنا إِلَى مُغادَرَةِ « مَدْرِيدَ » لِقُرْبِ حُلُولِ الشِّتاءِ . وَعَلِمْنا أَنَّ الطَّرِيقَ — الَّتِى أَزْمَعْنا(١) اُجْتِيازَها — خَطِرَةٌ فِى هٰذا الْفَصْلِ . وَقَدْ كانَ الشِّتاءِ قاسِيَ الْبُرُودَةِ، وَرَأَيْنا الثُّلُوجَ تُغَطِّى الْجِبالَ؛ فَنَدِمْنا عَلَى مُخاطَرَتِنا بِالسَّفَرِ فِى ذٰلِكَ الْوَقْتِ الْمَشْئُومِ .

وَكانَ مَعَنا دَلِيلٌ ذَكِىٌّ شُجاعٌ . وَمازِلْنا سائِرِينَ — عِدَّةَ أَيّامٍ — حَتَّى قَطَعْنا مَرْحَلَةً كَبِيرَةً فِى رِحْلَتِنا الْمُضْنِيَةِ(٢) .



وَكانَ الدَّلِيلُ يَتَقَدَّمُنا أَحْيانًا، ثُمَّ يَعُودُ إِلَيْنا لِيُرْشِدَنا إِلَى الطَّرِيقِ .

وَفِى ذاتِ مَرَّةٍ، بَعُدَ عَنّا — كَعادَتِهِ — فَانْقَضَّ

(١) قررنا . (٢) المتعبة الشاقة .

عَلَيْهِ ذِئْبانِ . وَرَأَى ٱلدَّلِيلُ هَلاكَهُ مُحَقَّقًا وَشِيكًا ؛ فَصَرَخَ مِنَ ٱلْفَزَعِ ، فَأَدْرَكَهُ « جُمْعَةُ » ، وأطْلَقَ رَصاصَهُ عَلَى أحَدِ ٱلذِّئْبَيْنِ ، فَقَتَلَهُ قَبْلَ أَنْ يَفْتَرِسَ ٱلدَّلِيلَ . وفَرَّ الذِّئْبُ الآخَرُ هارِبًا حِينَ رَأَى مَصْرَعَ أَخِيهِ .

٣ — الدُّبُّ



ثُمَّ رَأَى « جُمْعَةُ » دُبًّا هائِلَ ٱلْجِرْمِ (١) مُقْبِلًا عَلَيْهِ ؛ فاشْتَدَّ رُعْبُنا . وَلٰكِنَّ « جُمْعَةَ » سَخِرَ مِنْهُ (٢) ، وَظَهَرَتْ عَلَى وَجْهِهِ أَماراتُ ٱلْغِبْطَةِ (٣) بِمُصارَعَةِ ٱلدُّبِّ . ثُمَّ ٱلْتَفَتَ إِلَيَّ قائِلًا : « أَرْجُو أَلَّا

(١) الجسم . (٢) هزئ به . (٣) علامات الفرح .

تُعَكِّرُوا عَلَيَّ صَفائِي ؛ فَإِنَّنِي أُحِبُّ أَنْ أُداعِبَ هٰذا الذِّئبَ ، لِأُسَرِّيَ عَنْكُمْ قَلِيلًا . فَحَذارِ أَنْ تُطْلِقُوا عَلَيْهِ الرَّصاصَ . »

ثُمَّ قَذَفَهُ « جُمْعَةُ » بِحَجَرٍ فِي رَأْسِهِ ، فَجَرَى الذِّئبُ مُسْرِعًا إِلَيْه فَصَعِدَ « جُمْعَةُ » شَجَرَةً عالِيَةً ، فَوَقَفَ الذِّئبُ تَحْتَها قَلِيلًا ، ثُمَّ تَسَلَّقَها(١) . فَأَمْسَكَ « جُمْعَةُ » بِأَحَدِ أَغْصانِ الشَّجَرَةِ ، وَظَلَّ يَهُزُّ الْغُصْنَ هَزًّا عَنِيفًا ، وَهُوَ ساخِرٌ مِنْ حَيْرَةِ الذِّئبِ ، الَّذِي ظَلَّ يَتَرَجَّحُ فِي أَثْناءِ ذٰلِكَ . ثُمَّ صَوَّبَ « جُمْعَةُ » رَصاصَةً إِلى أُذُنِ الذِّئبِ — بَعْدَ أَنْ أَرْقَصَهُ طَوِيلًا — فَقَتَلَهُ . وَقَدْ أَضْحَكَنا كَثِيرًا .

٤ — لَيْلَةٌ هائِلَةٌ

وَرَأَيْنا اللَّيْلَ يَقْتَرِبُ ، والنَّهارَ يُوشِكُ أَنْ يَنْقَضِيَ . فَضاعَفْنا السَّيْرَ مُسْرِعِينَ ؛ لِنَجْتازَ الْمَسافَةَ الْقَلِيلَةَ الْباقِيَةَ عَلَيْنا فِي تِلْكَ الْأَوْدِيَةِ الْمُخِيفَةِ الْمُفْزِعَةِ . وَما غَرَبَتِ الشَّمْسُ حَتَّى مَرَّتْ بِنا خَمْسَةُ ذِئابٍ ؛ فَلَمْ نَأْبَهْ لَها(٢) . وَكُنَّا مُتَحَفِّزِينَ(٣) — فِي كُلِّ لَحْظَةٍ — لِمُدافَعَةِ الذِّئابِ

---

(١) صعدها . (٢) لم نهتم بها . (٣) مستعدين .

الـكَثِيرَةِ ، الَّتى سَتَعْتَرِضُنا فِى الطَّرِيقِ ، كَما أَخْبَرَنا الدَّلِيلُ .

وَما تَقَدَّمْنا نصفَ فَرْسَخٍ(١) بعْدَ ذٰلِكَ ، حتَّى رَأَيْنا ذِئابًا كَثِيرَةً تَنْهَشُ لَحْمَ جَوادٍ مَيِّتٍ ، وَقَدْ مَزَّقَتْهُ تَمْزِيقًا.

* * *

وَلَمْ نَجْتَزْ مَرْحَلَةً قَصِيرَةً أُخْرَى ، حَتَّى مَلَأَتِ الذِّئابُ الْجَوَّ بِعُوائِها. وَرَأَيْنا أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ ذِئْبٍ تَكْتَنِفُنا(٢) ، مُتَحَفِّزَةً لِلْوُثُوبِ عَلَيْنا ، والْفَتْكِ بِنا. فَأَطْلَقْنا عَلَيْها الرَّصاصَ ، وَصَرَخْنا صَرَخاتٍ عالِيَةً لِنُخِيفَها .

فَوَلَّتِ الذِّئابُ هارِبَةً .

* * *

وَلَمَّا قَطَعْنا مَرْحَلَةً أُخْرَى ، أَحاطَتْ بِنا قُطْعانٌ كَبِيرَةٌ ، وَسَمِعْنا

---

(١) نحو أربعة من الكيلومترات .

(٢) تحيط بنا

صَوْتَ رَصاصَةٍ بِالْقُرْبِ مِنّا ، وَرَأَيْنا جَوادًا يُسابِقُ الرِّيحَ ، وَتَعْدُو فِي إِثْرِهِ جَمْهَرَةٌ مِنَ الذِّئابِ ؛ فَعَلِمْنا أَنَّ مَآلَهُ(١) الْمَوْتُ الْوَشِيكُ .

وَما سِرْنا خُطُواتٍ قَلِيلَةً ، حَتَّى رَأَيْنا جُثَّةَ جَوادٍ آخَرَ قَطَّعَتْها الذِّئابُ



إِرْبًا إِرْبًا(٢) ، وإِلى جانِبِها جُثَّتَيْ فارِسَيْنِ ، لَمْ تُبْقِ مِنْهُما الذِّئابُ إِلّا الْعِظامَ . فَعَلِمْنا أَنَّ أَحَدَهُما هُوَ الَّذِي أَطْلَقَ الرَّصاصَةَ الَّتِي سَمِعْنا دَوِيَّها مُنْذُ حِينٍ .

وإِنّا لَحائِرُونَ مَذْعُورُونَ مِنْ هٰذا الْمَنْظَرِ الْمُفْزِعِ الْهائِلِ ، إِذْ أَقْبَلَ

(١) مصيره . (٢) قطعة قطعة .

عَلَيْنا — مِنْ أَسْرابِ الذئابِ — ما لا قِبَلَ لَنا بِمُقاوَمَتِه . فقَدِ اكْتَنَفَنا نَحْوُ ثَلاثِمائَةِ ذِئْبٍ : فاعْتَصَمْنا(١) بِأَشْجارٍ قَرِيبَةٍ .

وبَعْدَ أَنْ تَرَجَّلْنا ، ظَلِلْنا نُطْلِقُ عليْها الرَّصاصَ ؛ فَتَراجَعَتْ ، ثُمَّ كَرَّتْ علينا كَرَّةً أُخرَى . وما زِلْنا نُحارِبُها مُسْتَبْسِلِينَ ، حتَّى قَتَلْنا مِنْها نَحْوَ سِتِّينَ ذِئْباً ، وكَسَبْنا المَعْرَكَةَ — بَعْدَ جِهادٍ عنيفٍ — وانْتَصَرْنا عَلَى الذِّئابِ ، بِأُعْجُوبَةٍ لا مَثِيلَ لها فى الأَعاجِيبِ .

٥ — خاتِمَةُ الرِّحْلَةِ

ثُمَّ قَطَعْنا المَرْحَلَةَ الْباقِيَةَ مُسْرِعِينَ ، حتَّى وصَلْنا إلى الْمَدِينَةِ ، حَيْثُ أَتْمَمْنا رِحْلَتَنا — بَعْدَ ذٰلِكَ — آمِنِينَ .

وما أَنْسَ لا أَنْسَ — ما حَيِيتُ — هٰذِهِ الرِّحْلَةَ الْبَرِّيَّةَ الْمُخِيفَةَ الَّتى أَنْسَتْنِى أَهْوالُها أَهْوالَ الْبَحْرِ .

وقَدْ آلَيْتُ(٢) عَلَى نَفْسِى أَنْ أَقْضِىَ الْبَقِيَّةَ الْباقِيَةَ مِنْ عُمْرِى فى دَعَةٍ(٣) واطْمِئْنانٍ ، وأَمْنٍ وسَلامٍ .

القصة التالية : « جلفر فى بلاد الأقزام »

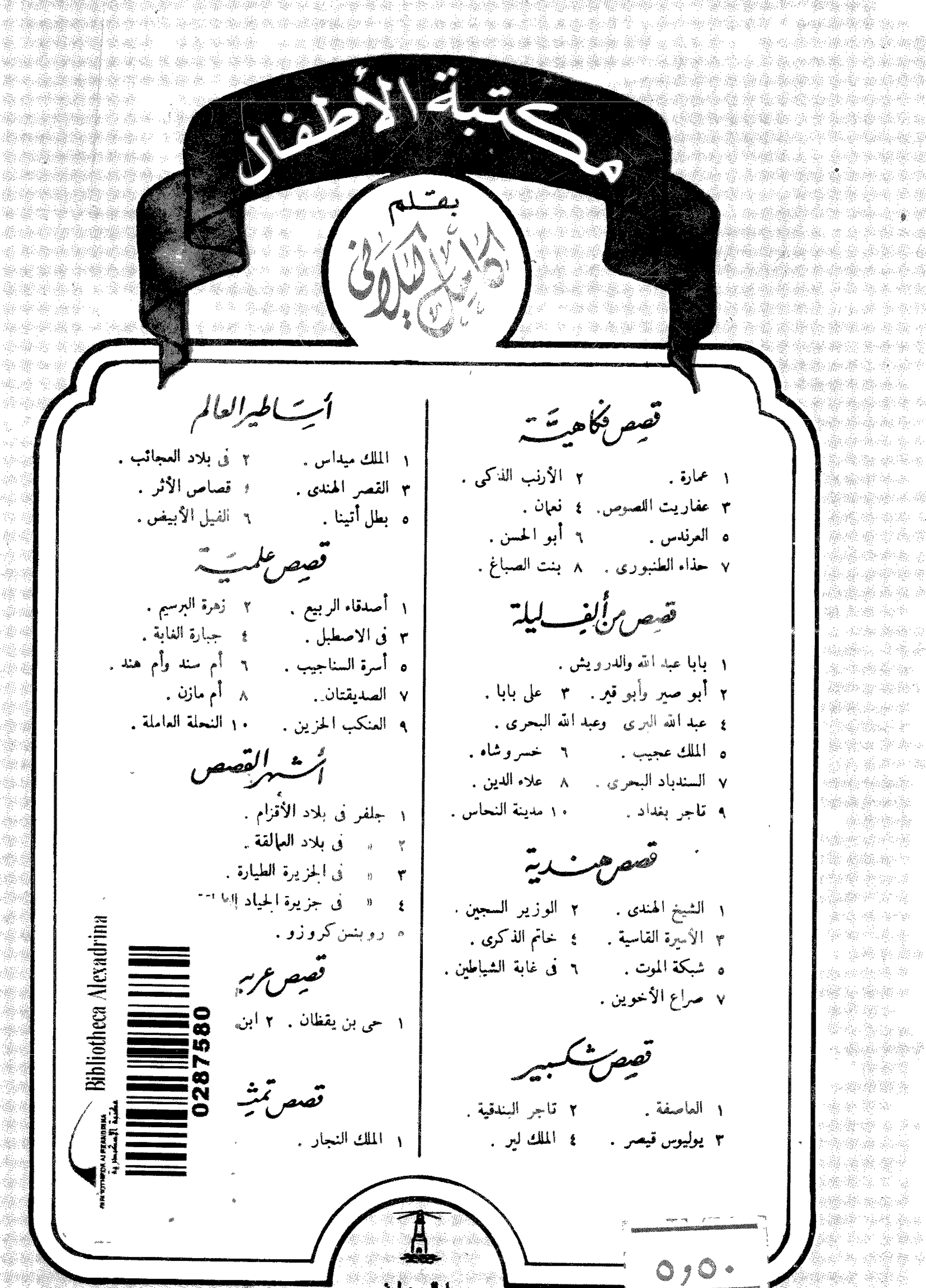
---

(١) لجأنا . (٢) حلفت . (٣) راحة .

رقم الإيداع		١٩٩٢ / ٨٥٩٥
الترقيم الدولى	977 – 02 – 3838 – 4	ISBN

١ / ٩٢ / ١٢٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)



مكتبة الأطفال

بقلم كامل كيلانى

قصص فكاهية

١ عمارة . ٢ الأرنب الذكى .
٣ عفاريت اللصوص . ٤ نعمان .
٥ العرندس . ٦ أبو الحسن .
٧ حذاء الطنبورى . ٨ بنت الصباغ .

قصص من ألف ليلة

١ بابا عبد الله والدرويش .
٢ أبو صير وأبو قير . ٣ على بابا .
٤ عبد الله البرى وعبد الله البحرى .
٥ الملك عجيب . ٦ خسروشاه .
٧ السندباد البحرى . ٨ علاء الدين .
٩ تاجر بغداد . ١٠ مدينة النحاس .

قصص هندية

١ الشيخ الهندى . ٢ الوزير السجين .
٣ الأميرة القاسية . ٤ خاتم الذكرى .
٥ شبكة الموت . ٦ فى غابة الشياطين .
٧ صراع الأخوين .

قصص شكسبير

١ العاصفة . ٢ تاجر البندقية .
٣ يوليوس قيصر . ٤ الملك لير .

أساطير العالم

١ الملك ميداس . ٢ فى بلاد العجائب .
٣ القصر الهندى . ٤ قصاص الأثر .
٥ بطل أثينا . ٦ الفيل الأبيض .

قصص علمية

١ أصدقاء الربيع . ٢ زهرة البرسيم .
٣ فى الاصطبل . ٤ جبارة الغابة .
٥ أسرة الساجيب . ٦ أم سند وأم هند .
٧ الصديقتان . ٨ أم مازن .
٩ العنكب الحزين . ١٠ النحلة العاملة .

أشهر القصص

١ جلفر فى بلاد الأقزام .
٢ « فى بلاد العمالقة .
٣ « فى الجزيرة الطيارة .
٤ « فى جزيرة الجياد
٥ روبنسن كروزو .

قصص عربية

١ حى بن يقظان . ٢ ابن

قصص تمثيلية

١ الملك النجار .

٥٫٥٠

دار المعارف